جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

الوحي الإلهي لغير الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم دراسة بلاغية

الدكتورة

إيمان سعيد حسن موسى عبد السلام

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية ورئيس القسم - جامعة الأزهر - مصر

العدد الرابع والعشرون

للعام ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

الجزء السابع

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٠م

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

الوحي الإلهي لغير الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم دراسة بلاغية

إيمان سعيد حسن موسى عبد السلام

قسم البلاغة والنقد ـ كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية ـ جامعة الأزهر ـ مصر

البريد الإلكتروني: emansaid_islam.alx@azhar.edu.eg

الملخص

هذا البحث دراسة بلاغية تحليلية لآيات الوحي الإلهي لغير الأنبياء والمرسلين، ويدور حول تسع آيات من كتاب الله عز وجل تخص الوحي للبشر العاديين، والملائكة، والسموات والأرض ، والنحل ، والشياطين ....وأعني بتلك الآيات المباركة التي اشتملت على كلمة الوحي ، سواء كانت بصيغة الماضي أو المضارع أو غيرهما ...وقد قام البحث على : مقدمة ، تمهيد ، خمسة مباحث ، وضحت من خلالها مفهوم الوحي ومصادره وطرقه وأنواع متلقيه ، ثم خصصت لكل نوع من الموحي إليهم مبحثاً خاصاً به مع الاستشهاد من القرآن الكريم وتحليل كل شاهد تحليلاً بلاغياً، وذلك للكشف عن السمات الموضوعية والفنية التي تضمنتها تلك الآيات الكريمة .

الكلمات المفتاحية : مفهوم الوحي ، طرقه ، مصادره أنواع متلقية ، تحليل الآيات الخاصة بالوحي

The divine revelation of non-prophets and messengers in the Holy Quran Study of a speech

Eman Said Hassan Mousa Assistant
Professor, in the department of allegiance and criticism at the Faculty of Islamic and Arab Studies in Alexandria for girls and head of section, Egypt
Email: emansaid_islam.alx@azhar.edu.eg

Abstract

This research is an analytical rhetorical study of the revelations of divine revelation for non-prophets and messengers, and it revolves around nine verses from the Book of God Almighty pertaining to the revelation of ordinary people, angels, heaven and earth, bees, demons .... I mean by those blessed verses that included the word of revelation, whether It was in the form of the past, the present tense, or others ... The research was based on: an introduction, a preface, five topics, through which the concept of revelation, its sources, methods, and types of recipients were clarified, then each researcher was assigned a special topic for them and a citation from the Holy Qur'an with the analysis of each witness Rhetorical analysis, in order to reveal the objective and artistic features contained in those verses.

Keywords : The concept of revelation and its methods, sources, receptive types, analysis of verses related to revelation.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، أنزل القرآن بفضله ورحمته ليكون نورًا وضياءً وهداية للعالمين، تُسكن إليه النفوس، وتطمئن به القلوب، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين وعلى آله وصحبه الأخيار الأطهار.

وبعد.....

كان للقرآن الكريم الفضل الكبير في إثراء اللغة العربية، والتوسع بها إلى آفاق جديدة في التعبير والتصوير والابتكار لمعان ومفاهيم جديدة لم تكن البيئة العربية قد شهدتها من قبل، وهذا مظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم ، فإن حقيقة الإعجاز تقف بين موضوع باهر قاهر، وإنسان عاجز قاصر، والذين درسوا إعجاز القرآن الكريم قديماً وحديثاَ ،قد توصلوا لهذه الحقيقة التي ينبغي أن نشتق منها منهجاً لدراسة إعجاز القرآن دراسة موضوعية ، تقوم على التحليل والتعليل والاستنباط ، للوقوف على الحقائق الموضوعية في هذا الكتاب الكريم، وتحقيقًا لهذا الغرض كان اختياري لموضوع من مواضع الإعجاز في هذا الكتاب العظيم.

"الوحي الإلهي لغير الأنبياء والمرسلين"

فموضوع الوحي من الموضوعات المهمة في حضارة الإسلام وتاريخه، وهو أيضًا موضوع عالي الجانب له مقامه الخاص في العقيدة الإسلامية، إذ يتوقف على التصديق به إيمان المسلم من عدمه، فهو موضوع يستند إلى الإيمان بمعالم الغيب.

وهو بحث متواضع يدور حول تسع آيات من كتاب الله ﷻ هي آيات الوحي الإلهي لغير الأنبياء والمرسلين.

وأعني بآيات الوحي تلك الآيات المباركة التي اشتملت على كلمة الوحي سواء كانت بصيغة الماضي أو المضارع أو غيرها....

استوعب القرآن الكريم جميع التصريفات اللغوية لمادة الوحي وعبر عن أغلبها بمعانيها المتداولة، وصبها جميعًا في قوالب جديدة ترابطت فيها المعاني المتعددة، أو

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

انفصلت عن بعضها بعضًا، كما ورد في آيات عدة ستكون مدارًا للبحث فيما يأتي.

وقد سرت في هذا البحث وفق المنهج التحليلي البلاغي الشامل لكل المسائل البلاغية في كل أية على حدة.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتي على هذا النحو: "مقدمة/ تمهيد/ خمسة مباحث"

المقدمة فيها: أسباب اختياري للموضوع والمنهج المتبع فيه.

التمهيد: ويشتمل على :

- تعريف الوحي في اللغة والشرع.
- مصادر الوحي.
- الوحي الإلهي طرقه وأنواع متلقيه.

المبحث الأول: الوحي الإلهي للملائكة.

المبحث الثاني: الوحي الإلهي للبشر وهو على أنواع

- الوحي الإلهي للحواريين.
- الوحي الإلهي لأم موسى.
- الوحي بالإشارة برمز أو إيماء كالوحي لقوم زكريا.

المبحث الثالث: الوساوس الشيطانية.

المبحث الرابع: الإلهام الغريزي للحيوان "النحل"

المبحث الخامس: الوحي الإلهي للجمادات "السموات والأرض"

الخاتمة: فيها أهم نتائج البحث ثم ثبت المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات.

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٨]

اللّٰهُمَّ امين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

تمهيد

الوحي الإلهي في حقيقته قدم صورة جلية من الاتصال الخارق غير المنظور بين ذاتين من عالمين مختلفين، سمت فيه النفس الإنسانية إلى الاتصال بالملأ الأعلى، والتلقي منه، فكانت ظاهرة إعجازية، قدمت نماذج من الاتصال الخفي من غير المتلقي له.

وتجلت عظمتها في خصوصية معارفها التي كان أعظم ما فيها أن كمًا هائلاً من المعارف، يلقى في لحظة خاطفة، لا يكاد يكون للزمن فيها تقدير أو وجود، وإنما هو انتقال للمعرفة من ذات إلي ذات بحث لا يمكن إطلاقًا تصور مدى للمقارنة مع العلوم والمعارف المكتسبة بالطرق النظرية والاستدلالية والكسبية(١).

الوحي لغة:

تعريف الوحي في اللغة هو: الإعلام في خفاء ومن هنا كان له في لسان العرب إطلاقات عدة، كلها يدور حول هذا المعنى العام: فيطلق على الإلهام، الإشارة، والكتابة والرسالة، والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك(٢).

فلفظة الوحي: لفظة عربية أصيلة والفعل منه، وحى يحي فمصدره وحيًا، إذا كتب، وأوحى يوحي فمصدره إيحاء، والأول أكثر استعمالاً في العربية فيقال: وَحَى في الحجر إذا كتب فيه وحيًا، ووحى الكتاب إذا كتبه(٣).

وللوحي إطلاقات عدة ورد بها في القرآن الكريم من خلال هذا المعنى اللغوي الشامل، المتفرع من المدلول اللغوي الأصلي لمادة الوحي والإيحاء.

---

(١) "الوحي ودلالاته في القرآن الكريم والفكر الإسلامي"، د/ ستار جبر حمود الأعرجي، ص٦، دار الكتب العلمية/ بيروت– لبنان ط أولى ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

(٢) "لسان العرب ": مادة وحي ٣/٨٩٢/ بيروت دار ألسن العرب (د.ت)، وينظر أيضًا في "المفردات في ترتيب القرآن" ص ٥١٥/ المطبعة الميمنية ١٣٢٤، "الوحي المحمدي" ، محمد رشيد رضا ص٧ الزهراء للإعلام العربي ١٩٨٨م، ١٤٠٨هـ .

(٣) "جمهرة اللغة"، ٢/٣٨٢، دار صادر بيروت (د.ت) ، / وينظر في الوحي ودلالاته في القرآن الكريم والفكر الإسلامي : ص :١٠ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

فمن ذلك:

١) إطلاق الوحي بمعنى الإلهام الفطري للإنسان كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ..﴾ [القصص:٧]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي..﴾ [المائدة:١١١].

٢) إطلاق الوحي بمعنى الإلهام الغريزي للحيوان والحشرات كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[النحل:٦٨]، أو التقدير والنطق لمن جعله حيًا بالنسبة للسموات والأرض.

٣) إطلاق الوحي مرادًا به الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيماء، كما في قوله تعالى في حق نبي الله زكريا عليه السلام ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[مريم:١١]. (١)

٤) إطلاق الوحي بمعنى وسوسة الشيطان وتزيينه الشر للإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١].

ويأتي الوحي للتعبير عن وسوسة شياطين الجن إلى شياطين الإنس أو بعض الجن إلى بعض، أو بعض الإنس إلى بعض كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

٥) إطلاق الوحي مرادًا به إلقاء الله إلى الملائكة، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...﴾ [الأنفال:١٢] (٢).

٦) الإلهام الإلهي للأنبياء فهو خاص بإبلاغهم تعاليم السماء.

---

(١) وينظر في الوحي ودلالاته في القرآن الكريم والفكر الإسلامي: ص: ١٧/١٦، وينظر المفردات : ص ٥١٥.

(٢) "أنوار التنزيل"، ٢٢٣/١، ط الحلبي ١٣٥٨هـ.

الوحي بالمعنى الشرعي:

تارة يعرفونه بأنه كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه، وتارة أخرى يعرفونه بأنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه الموحى به، وأن التعريف الثاني تعريف للوحي بمعنى الإيحاء.

وعليه فالوحي بالمعنى اللغوي يشمل كل إعلام في خفاء، والوحي بالمعنى الشرعي خاص لا يتناول إلا ما كان من الله لنبي من الأنبياء[١].

مصادر الوحي (٢)

عند تتبع مادة الوحي في القرآن نجد أن مصدر الوحي يتمثل في ثلاثة مصادر:

١) الوحي الإلهي: أغلب الوحي الوارد في القرآن الكريم من هذا النوع، إذ يصدر عنه تعالى إلى أنبيائه ورسله، أو باقي مخلوقاته، وإن كان يختص بالأنبياء عليهم السلام دون غيرهم.

ويعد الوحي الصادر من الله ﷻ شاملاً وجامعًا لكل العناصر اللغوية والاصطلاحية والشرعية للوحي.

٢) الوحي الشيطاني: يتمثل فيما يلقيه الشيطان بمصادقيه المختلفة إلى البشر من نحو الوسوسة والنزغ والأز...

٣) الوحي من مصادر أخرى: فقد وردت بعض الآيات بالإشارة إلى كون الوحي صادرًا من الملائكة والبشر ومظاهر الطبيعة وغيرها[٢].

---

(١) "الوحي والقرآن الكريم"، د/ محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة عابدين ط أولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٧.

(٢) ، (٣) بتصرف من "الوحي ودلالاته في القرآن": ص٣٧ ، ٤٧.

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

الوحي الإلهي طرقه وأنواع ملتقيه

" يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١].

يبين الحق تبارك وتعالى بصورة مجملة تارة وبصورة مفصلة أنواع الوحي وطرقه وأنواع متلقيه سواء أكان هذا الوحي الإلهي للأنبياء والمرسلين أو الوحي الوارد إلى أنواع متعددة من المخلوقات.

ومن الأنواع الذين تلقوا الوحي هم البشر، وقد وضح سبحانه كيفية إلقاء الوحي فيما يخص البشر بما ورد في آية سورة الشورى السابقة، فالوحي للبشر يكون عن طريق:

١) الوحي المباشر دون وساطة بل بالإلهام والقذف في الروع.

٢) الوحي بالتكليم من وراء حجاب.

٣) الوحي بواسطة ملك الوحي المرسل إلى الأنبياء.

«أما الوحي إلى غير البشر فلا نجد في القرآن الكريم ما يبين على سبيل التفصيل الظاهر الدلالة طرق هذا الوحي، كالوحي إلى الحيوانات، ومظاهر الطبيعة إلا أن المفسرين حاولوا أن يستفيدوا ذلك من خلال مقابلة الآيات وربطها ببعضها وتفسير بعضها بدلالة البعض الآخر، فكانت الاحتمالات في الوحي إلى غير البشر تدور في إطار التسخير والإلهام الغريزي، وما يقع ضمن ذلك»(١).

- أنواع من يلقى إليهم الوحي الإلهي:

١- الأنبياء والرسل(٢).

٢- الملائكة(٣).

---

(١) ينظر "الوحي ودلالاته في القرآن الكريم" (٤٧-٤٨).
(٢) ينظر سورة [النساء:١٦٣-١٦٤].
(٣) ينظر سورة [الأنفال:١٢].

٣- الحواريين[١].

٤- الأسباط من أنبياء بني إسرائيل[٢].

٥- البشر العاديين كأم موسى [٣].

٦- الوحي إلى الحيوانات والحشرات [٤].

٧- مظاهر الطبيعة من الجمادات وغيرها[٥].

وسوف يتم تفصيل ذلك من خلال طرق الوحي وأنواع المتلقين وطبيعة نوع كل وحي، وسوف أقتصر فيه على الوحي الإلهي لغير الأنبياء والمرسلين .

أولاً: الوحي الإلهي للملائكة:

قال تعالى : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ [الأنفال:١٢].

الوحي إلى الملائكة من الأمور الغيبية التي لا نعلم كيفيتها إلا بالتوقيف والنقل عن صحيح السنة ومقبولها، فإننا نعمد إلى ما روى من السنة الصحيحة ومقبولها، روى البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات شيئًا، فإذا فزع عن قلوبهم وسكن الصوت عرفوا أنه الحق، ونادوا ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق»[٦] ولا مرية في أن أهل السماوات هم الملائكة.

وقد حاول المفسرون معرفة طريقة الوحي للملائكة فاختلفوا على آراء عدة

(١) ينظر سورة [المائدة:١١١].
(٢) ينظر سورة [النساء:١٦٣].
(٣) ينظر سورة [القصص:٧].
(٤) ينظر سورة [النحل:٦٨].
(٥) ينظر سورة [فصلت:١٢]، [الزلزلة:٤-٥] ، وينظر "الوحي ودلالاته في القرآن الكريم" (٤٧-٤٨).
(٦) "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" لابن حجر (٣٨٩/١٣)، ط الهيئة المصرية ١٣٤٨هـ

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

منها:

منهم من قال أن «الوحي إلى الملائكة يعتمد على الخفاء في معنى الوحي عمومًا، ليتخذه أساسًا من وجه يخص كما يمكن أن يكون بأنه تعالى ينصب دليلاً يخفى إلا على من ألقى إليه من الملائكة»(١).

ومنهم من يرى أن الوحي إليهم كان «بواسطة اللوح والقلم»(٢) .

من خلال هذه الآراء السابقة وغيرها كثير لا نعثر على تفسير فيها يوضح بجلاء كيفية هذا الوحي إذ يبقى ذلك خافيًا علينا

ثانياً الوحي إلى البشر:

وذلك كالوحي إلى حواري عيسى- عليه السلام- وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:١١١].

وللوحي للحواريين آراء عدة منها:

منهم من يرى بأنه يكون بالإلقاء(٣) مباشرة دون توسط أحد، أو عن طريق الإلهام والقذف.. (٤)

ومنهم من يرى بأن الوحي إليهم كان أمرًا لهم على ألسنة الرسل(٥).

" ومن الوحي إلى البشر أيضًا: «الوحي إلى أم موسى» حيث ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ....﴾ [القصص:٧].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه:٣٧-٣٨].

---

(١) "التبيان" للإمام الطوسي (٨٧/٠٥).
(٢) "المفردات" (٥١٦) ، و ينظر "الوحي ودلالاته في القرآن الكريم" ص: ١٥٧
(٣) "مجاز القرآن" (٨٢/١) و ينظر "الوحي ودلالاته في القرآن الكريم" ص: ١٦٠.
(٤) "التبيان": (٥٧/٤)، و"مجمع البيان": (٢٦٣/٧).
(٥) "الكشاف": (٦٥٣/١).

وقد كان لطريقة الوحي إليها عند المفسرين آراء منها:

١) أن يكون كالوحي الملقى إلى الأنبياء ﷺ عن ابن عباس أن الوحي إليها كان كالوحي إلى النبيين[١]، وإن لم يحدد لذلك طريقة خاصة[٢].

٢) أن الوحي إليها كان إلهامًا وقذفًا في القلب، ففي رواية عن قتادة أنه قال عن ذلك الوحي[٣] وحي جاءها من الله فقذف في قلبها، أو في نفسها -باختلاف الرواية- وهذا الرأي هو ما عليه جمع من المفسرين[٤].

٣) ومنهم من قال أن الوحي كان بالرؤيا في المنام ... [٥]

الوحي البشري:

وهو وحي بشر إلى بشر، ورد في كتاب الله في سورة مريم الإشارة إلى الوحي البشري، في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١].

أجمع أهل اللغة ومعظم المفسرين بأن المقصود من الوحي هنا هو الإشارة، والإشارة السريعة أصل من أصول الوحي في العربية..[٦]

«ولا يبتعد المفسرون في بيانهم لهذا الوحي عن هذا الإطار إذ أنهم حين يأتون إلى آية وحي زكريا يستحضرون غالبًا للمعاني اللغوية للوحي وخصوصًا معنى الإيماء والإشارة أو الكتابة كما قال بعضهم، فالإمام علي بن أبي طالب ﷺ حين يعدد أنواع الوحي الوارد في الكتاب الكريم يعد منها وحي الإشارة[٧] ويستشهد عليه بالآية، قوله تعالى:

---

(١) "جامع أحكام القرآن": (١٩٥/١١).
(٢) "مجمع البيان": (٢٤٠/٤).
(٣) "جامع البيان للطبري": ج٢.
(٤) "التبيان": (١٣١/٨)، المفردات: (٥١٥).
(٥) "التبيان": (١٣١/٨)، "الكشاف": (٥٣٦/٢) ، و ينظر "الوحي ودلالاته في القرآن الكريم" ص: ١٦٣/ ١٦٤.
(٦) "المفردات": (٥١٥).
(٧) أنظر "المرتضى: رسالة في المحكم والمتشابه": (٢١).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١] »

ثالثًا الوساوس الشيطانية:

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]

لخص الإمام علي بن أبي طالب -كرم الله وجه- حين سئل عن الوحي في القرآن الكريم فعدد مصاديقه المختلفة ثم قال عن وحي الشيطان: ومنه وحي كذب[١]، واستشهد بالآية الكريمة قوله تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ....﴾ [الأنعام:١١٢].

وقد ميز القرآن الكريم الوحي الشيطاني بخصائص ينفرد بها، وهي خصائص تتضح من خلال آيات الذكر الحكيم التي تناول ذكر الشيطان وما يحيط به ويمكن إجمالها في:"

١)تلبيس الشيطان بطبيعته العاصية فلا ينسب وحيه إلى غيره، ولا تكون له أية صلة بالله تعالى، لأنه يقف في مقابل الوحي الإلهي ويتناقض معه، بل يمكن أن يقال إن وحيه تزييف للوحي الإلهي وخداع للإنسان، لأن الوحي الإلهي إنما هو كلامه تعالى المنزل على عباده من أنبياء أو غيرهم، فلا صلة لما يلقى به الشيطان إلى أوليائه بالله تعالى، إن هي إلا أكاذيب يدس بينها ما يسترقه بالسمع ويزيف به الوحي الإلهي.

٢) إن ميدان نشاط الشيطان في إغوائه وصده عن سبيل الله هو النفس الإنسانية من خلال مدركاتها وأفعالها وقواها المختلفة، ومن نشاطاته فيها: النجوى، العمل على نسيان الإنسان ذكر ربه، حثه على المعصية وتزينها له...

عن عباس: «إن الله تعالى جعلهم "أي الشيطان" يجرون من بني آدم مجرى الدم، وصدور بني أدم مساكن لهم»[٢] "

(١) "الشريف المرتضى: رسالة في المحكم والمتشابه": (٢١).
(٢) "مجمع البيان": (٤٠٦/٨) ، و ينظر "الوحي ودلالاته في القرآن الكريم" ص: ٥٢،٥٣ .

ويتبين من هذا عمق ما للشياطين من قدرات وقوى يتوصلون بها إلى تغيير النفوس والقذف فيها بما يستدعونها(١).

وهذه الصلة الوثيقة للوحي الشيطاني بالنفس الإنسانية، جعلت بعض ا لمفسرين يقول بأن الشيطان الحقيقي هو النفس، فالفخر الرازي يرى أن ما يأتي به الشيطان هو الوسوسة والتزيين والدعوى، ولا سلطان له إلا في ذلك "فلولا الميل الحاصل بسبب الشهوة والغضب والوهم والخيال.. وهي مدركات وقوى للنفس لم يكن لوسوسته تأثير البتة فدل هذا عنده على أن الشيطان الحقيقي هو النفس(٢).

ونخلص مما سبق أن جميع ما ينسب إلى الشيطان من المعاني الملقاه في النفوس "القلوب، الصدور" وإن عبر عنها بالقول والأمر والوسوسة والوحي والتزيين والوعد..... فهي جميعًا "قول وكلام ولكن لا يخرج عن شق فم ولا تحريك لسان"(٣).

رابعاً: الإلهام الغريزي للحيوانات:

ورد الوحي إلى الحيوان في القرآن الكريم من خلال الوحي إلى النحل في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

وحول هذا الوحي كان للمفسرين عدة تفسيرات منها، الإلهام أي "ألهم ربك يا محمد النحل إيحاءً إليها أن أتخذي من الجبال بيوتًا»(٤).

وقيل المقصود بالوحي الإلقاء في النفس، يقول الطبري «أن الوحي إلى النحل معناه: ألقى إليها ذلك فألهمها» فكأنه يرى أن طريق إيصال ذلك الوحي هو الإلقاء، وإن

(١) "الفصل في الملل والأهواء والنحل": (١٣/٥)، دار الندوة الجديدة المطبعة الدبية بيروت ط١/ ١٣١٧هـ
(٢) "مفاتيح الغيب" للرازي: (١١٤/١٩).
(٣) "الطباطبائي/ الميزان: (١٨١/٣).
(٤) "جامع البيان": (٩٣/١٤).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

المعاني إذا انطبعت في نفس النحل واستحقت التعبير عنها بالوحي فهذه المعرفة هي الإلهام على درجات أولها الإلقاء في النفس(١).

" وقيل المقصود بالوحي الأمر حيث عبروا عنه بأنه كان بأمره تعالى لها دون بيان كيفية وصول هذا الأمر.

عن ابن عباس قال في ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أمرها أن تأكل الثمرات وأمرها أن تتبع سبل ربها ذللاً(٢)، وإجمالاً فإن هذه الصيغ عمومًا تصب في معنى الإلهام.

وخلال هذه التفسيرات العديدة تبين لنا أن الوحي للحيوان بوصفه هداية فطرية تتناسب مع حاجات الحيوان ومستلزماته في الحياة طبعه الله عز وجل عليها بالخلقة(٣)."

خامساً: الوحي إلى مظاهر الطبيعة:

- الوحي إلى الأرض:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[الزلزلة:٣-٥]

وعليه فللمفسرين في معنى الوحي إلى الأرض آراء عدة :

«أن الوحي يراد به معناه الحقيقي بأنه وحي صادر عنه تعالى مباشرة إلى الأرض بالذات وذلك لأن الإيحاء يتعدى بإلي»(٤)

وممن نبه إلى ذلك ابن عباس وأبو عبيدة والطوسي والزمخشري وغيرهم(٥).

وقد اختلف المفسرون في التعبير عن كيفية هذا الوحي الحقيقي منه تعالى إلى

---

(١) "جامع البيان": (١٨٣/٣).
(٢) السابق: (٩٣/١٤).
(٣) ينظر "الوحي ودلالاته في القرآن الكريم" ص: (١٧٢/ ١٧٣).
(٤) "الميزان": (٣٢٤/٢٠).
(٥) "جامع البيان": (١٧١/٣٠)، "جامع أحكام القرآن": (١٤٩/٢٠)، "البنيان": (٣٩٤/١٠).

الأرض: حيث قيل: أن الوحي لها كان بالأمر[١] أي أنه تعالى أمر الأرض بالزلزال أمرًا مباشرًا.

وذهب آخرون إلى أن الوحي للأرض معناه الإلهام وذلك أنه تعالى ألهمها وعرفها[٢].

الوحي إلى السماء:

قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا﴾ [فصلت:١٢].

قيل إن الوحي إلى السماء شأنه كشأن الوحي إلى الأرض، وأضاف الراغب الأصبهاني بعض الأمور للوحي إلى السماء منها[٣].

١) إن المراد منه الوحي إلى أهل السماء خصوصًا وهم الملائكة لأنهم أهل السماء، فكان هذا الرأي يحاول أن يربط ذلك بقوله تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ...﴾ [الأنفال:١٢].

٢) إن الوحي إلى السموات على الخصوص يكون فيه رأيان.

إنه تسخير عند من قال إن السماء غير حي "ليست حية"، أو أنه نطق، عند من جعلها حية.

" ويرتبط بمعنى الوحي في الآية ما ينطبق على تعبيره تعالى عن ذلك بمعنى القول وتصريفاته منسوبًا إليه تعالى متوجهًا بالخطاب إلى السماء وكذلك إلى الأرض كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١].

فقد ذهب المفسرون فيما نقله ابن دريد إلى أن القول هنا كان لأهل السموات

(١) "جامع البيان": (١٧١/٣٠)، "التبيان": (٣٩٤/١٠)، "العين": (٣٢٠/٣).
(٢) "مجمع البيان": (٥٢٦/١٠) و ينظر "الوحي ودلالاته في القرآن الكريم" ص: ١٧٩ .
(٣) "المفردات": (٥١٦).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

والأرض وليس لهما تخصيصًا، فيكون مجازاً مرسلاً بإطلاق المحل وإرادة الحال .

وقيل أن هذا القول وأمثاله إنما هو استعارة بلاغية، لأنـه لا يصـح في السـماوات والأرض أن تؤمرا أو تخاطبًا، لأن ذلك لا يكون إلا لمن يعقل فكان المراد من هذه الآيات «الإخبار عن عظيم قدرة الله تعالى وسرعة مضيـ أمـره، ونفـاذ تـدبيره، ووقـوع أوامـره سبحانه من غير معاناة ولا كلفة ولا لغوب ولا مشقة»[1]."(٤)

(١) "التبيان": (١١٠/٩)، "الكشاف": (٤٤٥/٣) ، (٤) و ينظر "الوحي ودلالاته في القرآن الكريم" ص: ١٧٩/١٨٠.

آيات الوحي الإلهي لغير الأنبياء والمرسلين

الآية الأولى:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢]

الآية الثانية:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:١١١].

الآية الثالثة:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧]

الآية الرابعة:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١]

الآية الخامسة:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢]

الآية السادسة:

﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١]

الآية السابعة:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

الآية الثامنة:

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [فصلت:١٢]

الآية التاسعة:

﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة:١-٨]

أولاً : **الآية الأولى** :

﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ [الأنفال:١٢]

مناسبة سورة الأنفال لسورة الأعراف:

هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال وعلاقتها بما قبلها، إن هذه السورة بيان لأحوال النبي ﷺ مع قومه، وسورة الأعراف مبينةٌ لأحوال الرسل مع أقوامهم.

مناسبة الآية الكريمة للسورة:

بدأت السورة الكريمة بتسجيل سؤالهم عن الأنفال وبيان حكم الله فيها وردها إلى الله والرسول ودعوتهم إلى تقوى الله، ثم جعل يذكرهم بأمرهم وتدبيرهم لأنفسهم وتدبير الله لهم..... ثم ذكرهم بما أمرهم به من العون، وما يسره لهم من النصر، وما قدره لهم بفضله من الأجر: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ [الانفال:٩].

وهكذا يمضي سياق السورة في هذا المجال يسجل أن المعركة بجملتها من صنع الله وتدبيره بقيادته وتوجيهه(١).

(١) "في ظلال القرآن": (٣/١٤٦٤).

فها هي ذي موقعة الفرقان، وهي موقعة الحق أيدها الله واتَّخذت كل الأسباب لها، والله يؤيد بنصره من يشاء، أيدهم تعالى أولاً: بالمدد من الملائكة الذي كان بشرى واطمئنانًا، وأيدهم ثانيًا: بأن الله مع المؤمنين والملائكة، وأيدهم ثالثًا: بأن أمر الملائكة بأن يثبتوا الذين آمنوا، وأيدهم رابعًا: بأن ألقى الرعب في قلوب الكافرين، وأيدهم خامسًا: بأن كان الضرب فوق أعناقهم، والضرب في الأيدي التي تقتل[١] فقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ .....﴾ [الأنفال:١٢].

إن التأييد الإلهي لعباده المؤمنين يخضع لسنة إلهية وقانون رباني يتعلق بطبيعة المقاتلين من المؤمنين، وطبيعة إعدادهم «فعندما يبلغ الجهد البشري في الإعداد والتخطيط المدى الأقصى الذي يملكه البشر في عالمهم وزمانهم ولم يحققوا النصر، عندئذ يأتي النصر الإلهي والعون الرباني الذي وعد به الله المؤمنين»[٢].

فقد امتن سبحانه عليهم في هذه المعركة بالنعاس، فناموا واستراحت أجسامهم واطمأنت نفوسهم «فقاموا بروح عالية ونفسية مستقرة هادئة، أما عدوهم فقد أنهكهم السهر والتعب، فكانت نفوسهم مضطربة مما أضعف قدرتهم على القتال»[٣].

ثم امتن عليهم بإنزال المطر والماء حيث تثبت فيها أقدام المسلمين وقت القتال، كما امتن عليهم بنعمة التقليل والتكثير، وهي نعمة مزدوجة ذات تأثير نفسي ومعنوي على المؤمنين والمشركين، ففي جانب المؤمنين «أرى الله سبحانه رسوله في المنام أن المشركين قلة، فأخبر ﷺ أصحابه بذلك فكان تشجيعًا لهم على قتالهم»[٤].

قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًاۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ [الأنفال:٤٣].

وفي جانب المشركين فقد رأى الله المؤمنين للكفار على هيئتين، قبل القتال

---

(١) "زهرة التفاسير": (٦/٣٠٨٠).
(٢) "المنهج الحركي للسيرة النبوية":(٤١) منير محمد الغضبان/ م المنار/ الأردن/١٤١١هـ/١٩٩٠م.
(٣) "السيرة النبوية": (٣٠٢)/ أبو فارس.
(٤) السابق نفسه: (٣٠٣).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

وأثناء القتال، فقبل القتال جعل المسلمين أمام المشركين قلة حتى يستهينوا ويستهتروا بعدد المسلمين، قال تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال:٤٤].

وفي أثناء القتال جعل المسلمين أمام المشركين كثرة، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران:١٣].

والعبرة من ذلك «أن الله -سبحانه- قلل المؤمنين قبل اللقاء، ثم كثرهم فيما بعده ليجزئ المشركين عليهم ثم تفجؤهم الكثرة، فينتبهوا ويهابوا وتقل شوكتهم حيث يرون مالم يكن في حسابهم وتقديرهم»(١).

كما إمتن سبحانه على أهل بدرٍ بإنزال الملائكة قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩].

لم يكتف المولى بذلك "إنزال الملائكة" بل أوحى إليهم «بتثبيت الذين آمنوا وإلى ما وعده به من إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا وإلى ما أمر به الملائكة من الاشتراك في المعركة ..... إنها الأمر الهائل .... إنها معية الله سبحانه للملائكة في المعركة واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة»

إنه التأييد الإلهي الذي يسخره سبحانه لأوليائه، وجنود الله سبحانه لا حصر لها، فهو قادر سبحانه على نصرة أوليائه بجنود لا قبل لهم بها، وأشكال العون الإلهي لا تقف عند هذا الحد ... ولنرى هذا الوحي من الله للملائكة كيفيته وآليته المطلوبة.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢]

بين يدي الآية الكريمة :

يبين المولى سبحانه هنا أنه أوحي إلى الملائكة بالإلهام: أني معكم بالنصر والتأييد ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ أي قووا عزائم المؤمنين وثبتوا قلوبهم: أي اجعلوا قلوبهم كأنها مربوطٌ عليها فلا يخافون آية أغيار من عدوهم، ويزيد الإيضاح للمؤمنين: إياكم

(١) "الكشاف": (١٦١/٢).

أن تظنوا أن كثرة العدد أو قوة العدد هي التي تصنع النصر، بل النصر دائمًا من عند الله[١] سبحانه وتعالى القائل: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩].

قوله: ﴿إذ يوحي﴾، "إذ" فيها ما فيها من الإلهام، إذ يجعل النفس على تشوق لمعرفة ما بعدها، فيكون ذلك ألذ في النفس وأوقع في العقل فإذا ما جاء ما بعدها وهو قوله: "يوحي ربك للملائكة ..." تمكن في النفس أيما تمكن فيزداد الأثر ويعمق التأثير، و"إذ" هي للماضي المتصل بالحاضر والمضارع للدوام المتجدد أي اذكر أيها النبي ومن معك وحي الله تعالى المستمر الذي لا ينقطع إلى الملائكة أن الله معكم أيها الملائكة في تأييدكم للمؤمنين فهو سبحانه جل في ملكوته الأعلى معكم في تأييد المؤمنين وتثبيتًا لقلوبهم[٢].

فـ "إذ" ظرف متعلق بقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩][٣].

وجعل الخطاب هنا للنبي ﷺ تلطفا به، إذ كانت هذه الآية في تفصيل عمل الملائكة يوم بدر، وما خاطبهم الله به، فكان توجيه الخطاب بذلك إلى النبي ﷺ أولى لأنه أحق من يعلم مثل هذا العلم، ويحصل العلم للمسلمين تبعًا له وأن الذي يهم المسلمين من ذلك هو نصر الملائكة إياهم، ولأن النبي ﷺ كان أول من استغاث الله، ولذلك أوثر التعبير ﴿ربك﴾ وإضافته إلى ضمير النبي ﷺ ليوافق أسلوب ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾[٤] ولما فيه من التنويه بقدر نبيه ﷺ إشارة إلى أنه فعل ذلك لطفًا به ورفعًا لشأنه، فهذه الإضافة تشعرنا بتلك العظمة والتشريف، وهذا يضفي على الأحداث مزيدًا من الأهمية والتعظيم يجعل المتلقي في لهفة وشوق إلى معرفة حكاية هذا الإيحاء.

قوله: ﴿أذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم﴾.

---

(١) "نظم الدرر": (٢٣٢/٨).
(٢) "زهرة التفاسير": (٣٨٠/٦).
(٣) "التحرير والتنوير": (٢٨٠/٩).
(٤) "التحرير والتنوير": (٢٨٠/٩).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

حازت تلك الجملة كل أوصاف الحسن فشوقت ودلت على أن الأمر جد عظيم، فالنبي ﷺ مأمور من ربه أن يثبت هو والمؤمنون في المعركة، وأنه سيكون معهم هو وملائكته، إذا أوحى لهم -سبحانه- بذلك فكلمة ﴿يوحي﴾ تعني الإلهام فهي كلمة لها وقعها وأثرها في النفس، والإيحاء إلى الملائكة ضاعف إحساس النفس في خطورة الأمر وأهميته، وجاء قوله ﴿أني معكم﴾ ليلقي مهابة وإجلالاً وهم في معية الله، فكل ذلك من شأنه أن يشنف الأذان ويفتح العقول، ويشغل القلوب بمعرفة هذا المضمون فإذا ما جاء سرد الأمر بعد ذلك والمأمور به وقعت في النفس موقعًا، فتزداد التأثر بها والعمل على تنفيذ أمر الله بكل ثقة وطمأنينة بنصر الله وتأييده للفئة المؤمنة.(١) كما أنه أكد الأمر في خطاب الملائكة ، ليشعرهم بحتمية النصر .

والوحي إلى الملائكة المرسلين: إما بطريق إلقاء هذا الأمر في نفوسهم بتكوين خاص، وإما بإبلاغهم ذلك بواسطة.(٢)

«وقد عدى الفعل ﴿يوحي﴾ بـ ﴿إلى﴾ وكان من الممكن أن يقال (ربك للملائكة) لكن مجيء هذا الجار والمجرور ﴿إلى﴾ في قمة السمو التعبيري وذاك أن حرف الجر ﴿إلى﴾ يكون لمنتهى الغاية».(٣)

«وقد عبر بالمضارع ﴿يوحي﴾ لاستحضار هذه المنة العظيمة ماثلة أمامهم، ولتبقى حية في وجدانهم وكأننا نشاهد الآن المنظر، وهكذا يستمر السياق القرآني في استحضار جو المعركة وملابساتها ومواقفها، حيث يتجلى كيف كانت حالتهم، وكيف دبر الله لهم، وكيف كان النصر كله وليد تدبير الله أصلاً، والتعبير القرآني الفريد يعيد تمثيل الموقف بمشاهده وحوادثه، وانفعالاته، وخفقاته، ليعيشوه مرة أخرى، ولكن في ضوء التوجيه القرآني، فيروا أبعاده الحقيقية التي تتجاوز بدرًا».(٤)

---

(١) "زهرة التفاسير": (٣٠٨١/٦).
(٢) "التحرير والتنوير": (١٨١/٩).
(٣) "حروف المعاني": (٦٥)، ت/د علي توفيق، الحمد مؤسسة الرسالة ط ٢، ١٤٠٦هـ.
(٤) "في ظلال القرآن الكريم": (١٤٨٢/٣).

﴿أني معكم﴾ قيل هو في تأويل مصدر، وذلك المصدر مفعول ﴿يوحي﴾ أي يوحى إليهم ثبوت معيته لهم، وقيل على تقدير باء الجر، والمعية حقيقتها هنا مستحيلة فتحمل على اللائقة بالله تعالى، أعني المعية المجازية، فقد يكون معناها توجه عنايته إليهم وتيسير العمل لهم.

كما أن قوله تعالى: ﴿أني معكم﴾ إشارة إلى الملائكة، وإن كانت قوتهم لا حدود لها، إلا أنهم يستمدون القوة والعون من الله ﷻ شأنهم في ذلك شأن أضعف مخلوقات خلقه، وأقلها حولاً وحيلة، وهذا إن دْل إنما يدل على مدى تثبيت الله ﷻ للنبي ﷺ والمؤمنين، حيث اجتمعت في تثبيتهم قوتان، قوة لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء، وقوة الملائكة، وإذا نظرنا إلى الدلالة الصوتية لـ (أن) في ﴿أني معكم﴾ نجد أنها تؤكد هذا التأييد من ناحتين:

الناحية الأولى: أنها تفيد التأكيد على تثبيت الله ﷻ للنبي ﷺ والمؤمنين «كما توحي بها تلك الغنة التي تغن بمقدار حركتين يحدث من خلال النطق بها نوع من الضغط والارتكاز الذي يشبه الإصرار على تأكيد المعنى وتثبيته لدى السامع».

الناحية الثانية: دخولها على الجملة الاسمية خاصة: والجملة الاسمية تفيد تأكيد المعنى، وتدل على الثبوت والدوام، ولذلك كان تأثيرها أقوى من تأثير الجملة الفعلية، وأدلت بدلوها لتأكيد تثبيت الله ﷻ للمؤمنين.

وإيحاء الله إلى الملائكة بهذا مقصود منه تشريفهم وتشريف العمل الذي سيكلفون به، لأن المعية تؤذن إجمالاً بوجود شيء يستدعي المصاحبة، فكان قوله لهم ﴿أني معكم﴾ مقدمه للتكليف بعمل شريف، ولذلك يذكر ما تتعلق به المعية لأنه سيعلم من بقية الكلام، أي أني معلكم في عملكم الذي أكلفكم به.[1]

هذا وقد شغل المفسرون بكيفية الوحي للملائكة والمشاركة في المعركة، كيف اشتركت الملائكة؟ وكم قتيلا قتلت؟

---

(١) "التحرير والتنوير": (٢٨١/٩)، "البحر المحيط": (٤٦٥/٤).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

ولنجب على هذه التساؤلات وغيرها نقول: أن الحقيقة الكبيرة الهائلة في الموقف، هي تلك الحقيقة المرتبطة بحركة العصبة المسلمة في الأرض بهذا الدين، أمر هائل عظيم... أمر يستحق معية الله لملائكته في المعركة، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة!

إننا نؤمن بوجود خلق من خلق الله اسمهم الملائكة، ولكنا لا ندرك من طبيعتهم إلا ما أخبرنا به خالقهم عنهم، فلا نملك من إدراك الكيفية التي اشتركوا بها في نصر المسلمين يوم بدر إلا بمقدار ما يقرره النص القرآني، وقد أوحى إليهم ربهم: أني معكم وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا ففعلوا -لأنهم يفعلون ما يؤمرون- ولكننا لا ندري كيف فعلوا، وأمرهم أن يضربوا فوق أعناق المشركين، وأن يضربوا منهم كل بنان، ففعلوا كذلك بكيفية لا نعلمها، فنحن لا نعلم عنها إلا ما علمنا الله... ولقد وعد الله أن يلقي الرعب في قلوب الذين كفروا، فكان ذلك، ووعده الحق، وكلنا كذلك لا نعلم كيف كان، فالله هو الذي خلق، وهو أعلم بمن خلق.... (١)

ولو نظرنا إلى قوله تعالى: ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم﴾ التعبير هنا ركز على جوهر الحدث بصرف النظر عن كل هذه الملابسات إذ لا فائدة فيها.

« فالذي يهمنا أن نعرف ما يوحي إليه النص من حقائق ، والقصص صادق وواقع، ولكن سنترك ما تركه القرآن، ولا نهيم في إسرائيليات صادقة أو كاذبة، والنص القرآني واضح في مقصده من غير حاجة إلى ما يوضحه من خارجه»(٢).

فالنظم قائم على طي الأحداث غير المؤثرة والسكوت عنها، تركيزًا على الحدث الذي يخدم المعنى والغاية والمقصد، كما أن فيه من الإيجاز ما فيه ذلكم الإيجاز الذي صفى الأسلوب ونحله «اعتمادًا على ذكاء المتلقي وتعويلاً على إثاره حسه، وبعث خياله، وتنشيط نفسه حتى يفهم بالقرينة ويدرك باللمحة، ويفطن إلى معاني الألفاظ التي طواها

(١) "في ظلال القرآن الكريم": (١٤٦٩/٣).
(٢) "زهرة التفاسير": (٢١٢٢/٤).

التعبير»[١].

وبهذا الإيجاز يصل بنا النسق القرآني إلى ذروة الصراع وردود الأفعال والذي تمثل في قوله تعالى: ﴿أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾ هذه الجملة جاءت مفصولة عما قبلها لكمال الاتصال فهو بيان بعد إبهام، فهو بمنزل عطف البيان من المبين ،والفصل في كمال الاتصال يضرب بسهم وافر في إيضاح المعنى وتقريره وتوكيده، كما يعد وسيلة تعبيرية محكمة تتولد من خلالها الجمل والعبارات مع ارتباط بعضها ببعض برباط معنوي أقوى من الرباط اللفظي الذي تحدثه الواو.

فكأنه قيل : ماذا أوحى الله إلى الملائكة ؟ فقيل : (أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ...) ولا شك في أن حذف السؤال المقدر في المحاورة، يوفر للنظم الكريم دقةً وإيجازاً وإحكامًا، ويحدث بين أجزاء الكلام ارتباطًا داخليًا أشد وأقوى من الارتباط الخارجي الذي يحدثه العطف بالواو، ويجعل للأسلوب معه من القيم البلاغية والروعة الأدائية ما ليس لغيره من الأساليب الأخرى، ويلمح السكاكي -رحمه الله- هذا المعنى المبدع في السؤال المقدر في المحاورة فيقول: «وتنزيل السؤال بالفحوى منزلة الواقع لا يصار إليه إلا لجهات لطيفة، إما لتنبيه السامع على موقعه أو لإغنائه أن يسأل، أو لئلا يسمع منه شيء أو لئلا ينقطع كلامك بكلامه أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ، وهو تقدير السؤال وترك العطف أو غير ذلك مما ينخرط في هذا السلك»[٢].

ولنتأمل قوله: ﴿فثبتوا﴾ الفاء هنا للترتيب أي فثبتوا الذين آمنوا من حيث ما دل عليه ﴿أني معكم﴾ من التهيئة لتلقي التكليف بعمل عظيم، وإنما كان هذا العمل بهذه المثابة لأنه إبدال للحقائق الثابتة باقتلاعها، ووضع أضدادها لأنه يجعل الجبن شجاعة، والخوف إقدامًا، والهلع ثابتًا، في جانب المؤمنين، ويجعل العزة رعبًا في قلوب المشركين، ويقطع أعناقهم وأيديهم بدون سبب من أسباب بالقطع المعتادة فكانت الأعمال التي

(١) "خصائص التراكيب": د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة ط٥/ ١٤٢١هـ /٢٠٠٠م
(٢) "مفتاح العلوم": (٢٠٢ وما بعدها)، ت/ نعيم زرور، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط أولى، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٣م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

عهد للملائكة عملها خوارق عادات[١].

وقد جاءت هذه الجملة مقرونة بالفاء، للارتقاء في النعمة والتدرج في الفضل، فالنعمة الأولى "النعاس" والثانية "تثبيت الله ﷻ لهم عن طريق الملائكة، فكان حدثًا مغايرًا لما قبله، ولكنه في أتم ما يكون، فقد حطمت الفاء الحاجز الزمني بينهما، وجعلتهما، وكأنهما في وقت واحد، وهذا يدل على إتمام نعمة الله عليهم، فقد جمع لهم بين كل خير.

والتثبيت هنا مجاز في إزالة الاضطراب النفسي، مما ينشأ عن الخوف ومن عدم استقرار الرأي واطمئنانه، وقيل إن الفاء للإفصاح عن شرط مقدر، والمؤدي: إذا كان الله معكم في هذا التأييد فثبتوا الذين آمنوا أي قووهم معشر أرواح الله[٢].

وعرف المثبتون بالموصول لما تؤمئ إليه صلة أمنوا من كون إيمانهم هو الباعث على هذه العناية، فتكون الملائكة بعناية المؤمنين لأجل وصف الإيمان.

وتثبيت المؤمنين إيقاع ظن في نفوسهم بأنهم منصورون ويسمى ذلك إلهامًا، وتثبيتًا لأنه إرشاد إلى ما يطابق الواقع وإزالة للاضطراب الشيطاني، وإنما يكون خيرًا إذا كان جاريًا على ما يحبه الله تعالى بحيث لا يكون خطراً كاذبًا، وإلا صار غروراً، فتشجيع الخائف حيث يريد الله منه الشجاعة خاطر ملكي، وتشجيعه حيث ينبغي أن يتوقى ويخاف خاطر شيطاني ووسوسة لأنه تضليل عن الواقع[٣].

كما نلحظ التشديد الوارد في لفظه ﴿فثبتوا﴾ وذلك للتدريج والمبالغة على أن هذا الأمر لا يحصل في العادة للخائف، ولكنه أمر من الله فحصل لكم لتقويتكم على عدوكم، ولهذا نجد أنه قد تضافر معنى الكلمة وجرسها بالتشديد على الباء، ليعطي المعنى قوة وزيادة، فانغلاق الفم على الباء بالتشديد يوحي بمعنى الرسوخ والشدة، كما أن مجيئه في صورة الأمر للدلالة على سرعة امتثال الملائكة لنصرة المؤمنين .

(١) "التحرير والتنوير": (٢٨٢/٩).
(٢) "زهرة التفاسير": (٣٠٨/٦).
(٣) "التحرير والتنوير": (٢٨٢/٩).

ولنتأمل قوله تعالى ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ لم يسند النظم الكريم إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا إلى الملائكة بل أسنده الله إلى نفسه وحده بقوله: ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ لأن الملائكة المخاطبين كانوا ملائكة نصر وتأييد، فلا يليق بقواهم إلقاء الرعب، لأن الرعب خاطر شيطاني زميم، فجعله الله في قلوب الذين كفروا بواسطة أخرى غير الملائكة.

وأسند إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا إلى الله على طريق الإجمال دون بيان لكيفية إلقائه، وكل ما يقع في العالم هو من تقدير الله على حسب إرادته، وأشار ذلك إلى أنه رعب شديد قدره الله على كيفية خارقة للعادة، فإن خوارق العادات قد تصدر من القوة الشيطانية بإذن الله، وهو ما يسمى بالإهانة والاستدراج، ولا حاجة إلى قصد تحقير القرآن بإلقاء الرعب في قلوب المشركين كما قصد تشريف الملائكة، لأن إلقاء الرعب في قلوب المشركين يعود بالفائدة على المسلمين، وإنما كان إلقاء الرعب في قلوب المشركين خارق للعادة، لأن أسباب ضده قائمة، وهي وفرة عدوهم وعددهم وإقدامهم على الخروج إلى المسلمين، وحرصهم على حماية أموالهم التي جاءت بها العير(١).

وجملة ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ مفصولة عما قبلها لشبه كمال الاتصال، حيث إن الجملة السابقة أثارت في نفس المتلقي سؤالاً، هذا حال المؤمنين فما حال الكافرين ؟

فكان الجواب في هذه الجملة التي أشفت غليل المخاطب، ووقفت به إلى آخر ما ترقت إليه نفسه من تطلعات.

فجملة: ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ مستأنفة استئنافًا بيانياً إخبارًا لهم بما يقتضي التخفيف عليهم في العمل الذي كلفهم الله به بأن الله كفاهم تخذيل الكافرين بعمل آخر غير الذين كلف الملائكة بعمله، فليست جملة سألقي مفسرة لمعنى (أني معكم)، ولم يقل سبحانه (سنلقي) لئلا يتوهم أن للملائكة المخاطبين سببًا في

(١) "التحرير والتنوير": (٢٨٢/٩).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا.

ونلحظ في قوله ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ تلك الحركة التخيلية التي تلمس الحس، وتثير الخيال وتشرك النظر والمخيلة في تذوق الجمال، فالتصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى، المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية ومن أمثلة التصوير قوله تعالى: ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ حيث جعل الرعب شيء حسي مقذوف في القلوب، على سبيل الاستعارة المكنية، وهذه الاستعارة قد أكدت المعنى وقررته في أذهان السامعين من هول ما أصابهم من كرب وهم وخوف وفزع... حيث تملك الرعب منهم واستوعبهم.

وقد عبر النظم الكريم بقوله ﴿ألقي﴾ دون (قذف) وذلك لأن "قذف" يدل على الرمي والطرح، يقال قذف الشيء إذا رمى به[١]، أما "لقي" فإنها بأصل معناها تدل على أصول ثلاثة كما قال ابن فارس:

الأول: يدل على الاعوجاج، والثاني: تواخي شيئين، والثالث: طرح شيء[٢].

وعلى هذا فإن "لقى" تدل على الرمي والطرح والاعوجاج وزيادة، وبهذا يزيد من تأثير السامع بها وتفاعله معها، لأن الرعب مع هذا اللفظ "ألقى" يكون قد أطبق عليهم، وأغلق عليه باب الفزع، فلا يستطيعون فرارًا ولا فكاكًا، ولا يهدأ سعيرهم ولا ينطفئ لهيبهم.

وإذا تأملنا إيقاع المدود في الجملة ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ نجد أن له صداه في تثبيت المعنى، وبدأت الجملة بالمد بالياء الممتدة إلى أسفل، والذي يحتاج إلى

(١) "مقاييس اللغة": (٥/٦٨).
(٢) "مقاييس اللغة": (٥/٢٦٠).

انبساط في الشفتين عند النطق به، ويدل على مدى امتداد الرعب في قلوب الكافرين، واضطراب نفوسهم، والمد بالواو في ﴿قلوب﴾ والذي يدل على إغلاق الرعب عليهم وربط قلوبهم عليه، والمد بالألف الذي لا يقطعه ضيق النفس في (الأعناق، وبنان) والذي يدل على اضطراب المشركين إلى ما لا نهاية وتلبس الخوف والرعب بهم.

وهكذا ظل الصوت الممتد يتردد بصداه في الجملة بتردد الأصوات المكونة لكل كلمة، فولد في الآية أنغامًا خاصة، ذات رنين متميز بعث في النفس مدى إسباغ نعم الله ﷻ على المؤمنين(١).

ولنتأمل قوله تعالى: ﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ هذا أمر للمؤمنين بضرب عامة المشركين، بعد تطمينهم بالملائكة.

فقوله: ﴿فاضربوا﴾ تقريع على جملة: ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ المفرعة على جملة ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ في المعنى، يؤذن بما اقتضته جملة سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب من تخفيف عمل الملائكة عليهم بعض التخفيف الذي دل عليه إجمالاً قوله: ﴿أني معكم﴾(٢).

قوله ﴿البنان﴾ اسم جمع بنانه وهي الأصبع وقيل طرف الأصبع وتكرار قوله ﴿اضربوا﴾ وذلك للتأكيد على القيام بفعل الشيء على أكمل وجه، وقد عطف قوله ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ على قوله: ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ لا تفاقهما في الإنشائية لفظًا ومعنى، ولوجود المناسبة التامة بينهما وهو ما يعرف عند البلاغيين بالتوسط بين الكمالين.

وإضافة (كل) للبنان للاستغراق، أي استغراق أصحابها، وإنما خص سبحانه (الأعناق والبنان) لأن ضرب الأعناق إتلاف لأجساد المشركين، وضرب البنان يبطل صلاحية المضروب للقتال، لأن تناول السلاح إنما يكون بالأصابع.... (٣)

---

(١) بتصرف من الزمر. محمد عِلاقتهما بآل حم ، د/ محمد أبو موسى ص٧٨
(٢) "التحرير والتنوير": (٢٨٣/٩).
(٣) "التحرير والتنوير": (٢٨٣/٩).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

وضرب الملائكة اختلف فيه على عدة أراء:

قيل: يجوز أن يكون مباشرة بتكوين قطع الأعناق والأصابع بواسطة فعل الملائكة بكيفية خارقة للعادة، وقد ورد في بعض الآثار عن بعض الصحابة ما يشهد لهذا المعنى، فإسناد الضرب حقيقة على هذا المعنى، ويجوز أن يكون بتسديد ضربات المسلمين وتوجيه المشركين إلى جهاتها، فإسناد الضرب إلى الملائكة مجاز عقلي، لأنهم سببه.

وقد قيل: الأمر بالضرب للمسلمين، وهو بعيد، لأن السورة بعد انكشاف الملحمة(١).

ولا يخفى ذلك الالتفات وأثره البين في هذه الآية الكريمة فقد التفت سبحانه من خطاب الملائكة إلى خطاب المؤمنين ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ وهذا معناه: اضربوا الرؤوس فما فوق العنق هو الرأس، و"البنان" الأيدي والمعنى: أن اضربوا رؤوسهم، فإنها موطن الشيطان، واقطعوا أيديهم فإنهم يبطشون بها، فقد آذوا المؤمنين وعذبوهم وفتنوهم عن دينهم، فلا تأخذكم بهم رأفة، فرد الاعتداء يكون بمثله، فاقتلوهم واضعفوا قواهم، يشف الله بذلك صدور قوم مؤمنين وإن ذلك جزاء بما ارتكبوا(٢).

ولا يخفى علينا ما أحدثه حرف "القاف" الوارد في الجملة أربع مرات (سألقي - قلوب - فوق - الأعناق) كل هذا كان له صداه حيث إن حرف "القاف" حرف مجهور مستعلٍ منفتح(٣)، واتباعه بحرف المد الطويل في (سنلقي) والمد المطبق في (قلوب) والمد الممتد بإيقاعه لأعلى (الأعناق) كل هذا دل على إخماد الله لقوة الشرك الذي خيم عليها الضلال، وبيان فضل الله -سبحانه- على المؤمنين.

كما يستوقفنا الفعل (فثبتوا) و (اضربوا) وللأفعال في الكلام البليغ فضلاً عن الكلام المعجز دلالات وأسرار، فقد جاءت صياغة الفعل "ثبتوا" على وزن "فعّلوا" وصياغة

---

(١) "التحرير والتنوير": (٢٨٣/٩).
(٢) "زهرة التفاسير": (٣٠٨٠/٦).
(٣) "الأصوات اللغوية": (٢٦٥)، إبراهيم أنيس.

"اضربوا" على وزن أفعلوا"، وفرق بين هذه الصياغة وصيغة "فعل" فمعلوم أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فمتى كان اللفظ على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أعلى منه فلابد أن يتضمن من المعنى أكثر ما تضمنه أولاً[١].

فقد دل كل من الفعل (ثبتوا) والفعل (اضربوا) على مزيد من الإصرار والثبات وساعد على هذا تكرار الفعل اضربوا مما أكد المعنى وثبته في نفوس السامعين، ففي زيادة المبنى زيادة في الاحتفاء بالشيء المأمور به.

وهكذا تضافرت عناصر النظم في تشكيل الصورة في الآية الكريمة، وهمست بتثبيت المؤمنين، وإلقاء الرعب والفزع في قلوب المشركين الذين كذبوا الله ورسوله، والعنصر القرآني بهذه الإيحاءات يسلك طريقة في تهديد المشركين، وتثبيت الحذر في نفوس المؤمنين حتى يستقيموا على الجادة[٢]، حيث تبين عناية الله برسوله وبالمؤمنين، وفي غزوة كانت نبراسًا وقدوة للمجاهدين في سبيل الله يستقون منها دروسًا عديدة في الجهاد، ولتتذكرها الأجيال، فيتفاءلوا ويتوكلوا على الله واثقين بنصره وتأييده، ومن أهمها عدم التعلق بالمادة، وتصحيح النية لكي يكون هدف الجهاد هدفًا ساميًا لأعلاء كلمة الله في الأرض، والتعلق به والالتجاء إليه والاستغاثة به وحده، وبذلك يضمنون النصر على أعدائهم ظاهرًا وواقعًا.

(١) "البرهان في علوم القرآن": (٣/٣٤٠) الزركشي.
(٢) "البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري": (؟؟).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

ثانيًا : الآية الثانية :

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:١١١].

مناسبة السورة لما قبلها:

هذه الآية من سورة المائدة وعلاقتها بسورة النساء، ما ذكره الإمام السيوطي أن سورة النساء قد اشتملت على عدة عقود بعضها صريح وبعضها ضمني غير صريح، فمما ذكر في العقود الصريحة: عقود الأنكحة، وعقد الحلف وعقد الأيمان وعقد المعاهدة والأمان، ومن العقود الضمنية: عقد الوصية والوديعة والوكالة والعارية والإجارة وغير ذلك من العقود الداخلة في عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨].

فناسب أن يعقب الأمر بذلك بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود فكأنه قيل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة:١] التي فرغ من ذكرها في السورة التي تمت، فكان ذلك غاية في التلاحم والتناسق والارتباط(١).

مناسبة الآية للسورة الكريمة:

ابتدأت السورة الكريمة بالوفاء بالعقود والعهود، ولقد امتن الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات، فقال له سبحانه أذكر نعمتي عليك : أي في خلقي إياك من أم بلا ذكر، وجعلي إياك أية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء وعلى والدتك، حيث جعلتك لها برهانًا على براءتها مما نسبه الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة، إذ أيدتك بروح القدس وهو جبريل وجعلتك نبيًا داعيًا إلى الله في صغرك وكبرك، فأنطقتك في المهد صغيرًا، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لي بالعبودية، وأخبرت عن رسالتي إياك ودعوت إلى

(١) كتاب "أسرار ترتيب القرآن"، (٩٥) عبد الرحمن أبو بكر جلال الدين السيوطي، ت/ عبد القادر أحمد عطايا، ط٢/ ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م-دار الاعتصام.

عبادتي، ولهذا قال: ﴿تكلم الناس في المهد وكهلاً﴾ أي تدعوا إلى الله الناس في صغرك وكبرك[1].

فأرسله الله سبحانه إلى بني إسرائيل داعيًا إلى الحق المبين، وهاديًا إلى صراط مستقيم، غير أنه لم يجد منهم آذانًا صاغية، ولا قلوبًا واعية، ولما علم أن أكثرهم عن الحق معرضون، وعن الصراط صادون، خاطبهم بقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٥٢] ويحكي القرآن الكريم أن فئة قليلة كانت قد آمنت بما جاء به عيسى عليه السلام من الحق فلم تتردد في قبول ما جاء به، ولم تتقاعس عن تلبية دعوته، بل أجابته بقولها ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:١١١].

وقد سمى سبحانه أنصار عيسى بالحواريين فكانوا أيضًا من مظاهر الامتنان والنعم التي أنعم الله بها على رسوله الكريم بأن جعل له أصحابًا وانصارًا، وها هو وقت وفائهم بالعهد له والشهادة في حقه والوقوف بجواره لنصرته لذا ناسبت هذه الآية الكريمة تلك السورة المبنية على الوفاء بالعهد.

بين يدي الآية الكريمة:

قال تعالى: ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون﴾.

افتتحت الآية الكريمة بظرف الزمان (إذ) وهي لبيان حال الماضي أي: إذ فعلت كذا لكن يقدر فيها "أذكر" أي أذكر حين كان كذا، وقد ذكرت هنا في مقام تعداد النعم على عيسى عليه السلام، فهو سبحانه يذكره بهذه النعم التي امتن بها عليه حيث بدأ بقوله ﴿أذكر نعمتي عليك...﴾ ثم صارت تقدر بـ (إذ) مرة (أيدتك) يعني "اذكر إذ أيدت، اذكر إذ علمتك، اذكر إذ تخلق ، اذكر إذ أوحيت إلى الحواريين"

وقد تكررت في هذا الموضع للتأكيد على نعم الله سبحانه عليه وتأييده له،

(١) "ابن كثير": (٣/٢٠٠).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

وتكرير الظرف "إذ" دليل على منزلة ظرف الزمان في مساق هذه الآيات ومركزيته في ترتيب أو عطف بين الوقائع التي ينبغي تذكرها فهي أدلة وبراهين زمنية على صدق الرسالة، سيقت على هيئة محاولات ولفت انتباه وتذكير بما حصل من النعم التي يترتب عليها نتائج عظيمة، فتكرار أداة الدلالة الزمنية ربط بين الآيات والعبادات برابط يراد له أن يكون متصلاً بالتذكر وتثبيت الوقائع في الذهن، وإشعار المخاطب بأن الأحداث الكبرى تترتب عليها نتائج كبرى.

قوله (أوحيت) اختلف ألفاظ أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿وإذ أوحيت﴾ وإن كانت متفقة المعاني فقال بعضهم: (أوحيت) أي قذفت في قلوبهم وقال آخرون: معنى ذلك أي ألهمتهم فتأويل الكلام إذن.

وإذ ألقيت إلى الحواريين أن صدقوا بي وبرسولي عيسى[١]، وقيل قوله: (أوحيت) هذا لون من وحي غير اصطلاحي بل هو وحي لغوي، أي أعلمهم بخفاء أي أوحي إليهم بخواطر نورانية تمر بقلوبهم[٢]، وقيل إنه بمعنى الأمر وتقديره أمرت الحواريين، و "إلى" صلة[٣]، فهو إلقاء معني في خفاء أوصله تعالى إلى نفوسهم كيف شاء[٤].

وقوله "الحواريين": الحواريون: جمع حواري، والحواريون: لقب لأصحاب عيسى- عليه السلام- الذين آمنوا به ولازموه وهو اسم معرب من النبطية ومفرده حواري قاله في الإتقان عن ابن حاتم عن الضحاك، وفسره علماء العربية بأن من يكون من خاصة من يضاف إليه ومن قرابته، وغلب على أصحاب عيسى.

وفي الحديث قول النبي ﷺ: «لكل نبي حواري وحواريّ الزبير بن العوام»[٥] وعلى

(١) "تفسير الطبري": (١١٦/٩).
(٢) "تفسير الشعراوي": (١٤٦٢/٣).
(٣) "زاد الميسر في علم التفسير": (٦٠٠/١).
(٤) "تفسير ابن عطية المحرر الوجيز": (٢٥٩/٢).
(٥) رواه البخاري كتاب فضائل الصحابة/ باب ذكر مناقب الزبير بن العوام، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل طلحة والزبير.

ذلك فالحواريون: أصحاب عيسى ابن مريم وأنصاره وكانوا اثني عشر رجلاً.

واختلف في تسميتهم بذلك على أقوال:

قال الحذاق باللغة: الحواريون صفوة الأنبياءﷺ الذين خلصوا وأخلصوا في التصديق بهم ونصرتهم فسماهم الله ﷻ "الحواريون" وقد قيل أنهم كانوا قصارين فسموا الحواريين لتبيضهم الثياب، ثم صار هذا الاسم يستعمل فيمن أشبههم من المصدقين تشبيهًا بهم(١).

وقيل إنهم كانوا ملوكًا، وقيل كانوا صيادين، والذي عليه أهل اللغة أنهم الصفوة(٢).

قال ابن عباس: سموا بذلك لبياض ثيابهم، وقيل سموا بذلك لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس، بإفادتهم الدين والعلم المشار إليه في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

وقال قتادة والضحاك: سموا بذلك لأنهم كانوا خاصة الأنبياء، لصفاء ونقاء قلوبهم(٣)(٤).

وكما اختلف العلماء في سبب تسميتهم بالحواريين كذلك اختلفوا في تأويل وتفسير الوحي إليهم على عدة أراء منها:

أنه أوحى إلى رسوله عيسى ﷺ فنسب ذلك إليهم، وأضيف لأن الوحي إلى عيسى كالوحي إليهم كقوله تعالى: ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم﴾ وما أنزل علينا وما أنزل عليَّ، كذا ما أنزل إلى رسول الله كالمنزل إلينا فعلى ذلك الوحي إلى عيسى- هو

(١) "معاني القرآن" للزجاج: (٤١٦/١).
(٢) "التحرير والتنوير": (١٠٣/٦).
(٣) الراغب/ المفردات كتاب الحاء مادة صور.
(٤) "القرطبي": (٥٢).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

كالوحي إليهم(١).

وقيل: إنهم كانوا أنبياء قال ذلك الوحي هو الوحي الذي يوحي إلى الأنبياء، ومن قال إنهم ما كانوا أنبياء قال المراد بذلك الوحي الإلهام والإلقاء في القلب كما في قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى...﴾ وإنما ذكر هذا في معرض تعديد النعم(٢).

والراجح أنه وحي إلهام وقذف لا وحي إرسال، والقذف في القلب من غير تكلف ولا كسب وهو الإخطار بالقلب على السرعة ﴿أن أمنوا بي وبرسولي ...﴾.

والخطر يكون من الله تعالى ويكون من الشيطان، لكن ما يكون من الله تعالى يكون خيراً، ويتبين ذلك في أخره في قوله عز وجل: ﴿قالوا أمنا وأشهد بأننا مسلمون﴾ فقد طهروا سرائرهم من النفاق، فصاروا في نقاهم وصفائهم كالشيء الأبيض الخالص البياض، فهم لقوة إيمانهم وصفاء نفوسهم، قد لبوا نداء الحق، وتركوا الباطل وراءهم ظهريًا وأقروا بالإيمان بالله وحده، وعلموا علم اليقين أن ما جاءهم به عيسى عليه السلام هو الحق المبين وطلبوا منه أن يشهد لهم بهذا الموقف الإيماني عند الله يوم يقوم الناس لرب العالمين، وإنما خصهم سبحانه بالوحي إليهم ﴿إذ أوحيت إلى الحواريين﴾ إلهامًا وإكرامًا لانبساط ضياء عيسى عليهم(٣).

وفي الأثر: "هم القوم لا يشقى بهم جليس" فقد خصهم به تنويهًا بهم حتى كأن الوحي بالدعوة لم يكن إلا لأجلهم، لأن ذلك حصل لجميع بني إسرائيل فكفر أكثرهم على نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞ﴾ [الصف:١٤]، فكان الحواريون سابقين إلى الإيمان لم يترددوا في صدق عيسى(٤).

---

(١) "تفسير الماتريدية : تأويلات أهل السنة (٦٤٩/٣).
(٢) "زاد الميسر في علم التفسير": (٦٠/١)، "التفسير الكبير": (٤٦١/١٢).
(٣) "تفسير الشقيري لطائف الإشارات": (٤٥٥/١).
(٤) "التحرير والتنوير": (١٠٤/٦).

وفي قوله "أن" أراء منها:

يحتمل في "أن" اعتبارها تفسيرية، لأن قاعدة أن المفسرة محققة في هذا التركيب وهي أن تسبق بجملة فيها معنى القول من غير حروفه، ويليها جملة، ويحتمل أيضًا أن تكون حرفًا مصدريًا، تؤول وما بعدها بمصدر على إسقاط الجار لأنه كما هو معروف، يطرد إسقاط الجار قبل أن المصدرية(١).

وقد كان الوحي إلى الحواريين بالإيمان بالله ﷻ ورسوله الكريم عيسى- عليه السلام لذا قال جلت قدرته (أمنوا به وبرسولي) فكان دعوتهم هو الإقرار التام بألوهيته سبحانه والإيمان برسوله عليه السلام وذكر قوله : (برسولي) إشارة إلى مقامه من الله ﷻ وانفصال شخصه عن ذات الله ﷻ وأن عيسى ما هو إلا رسول من رب العالمين، وأن من زعموا أنه غير ذلك جاهلون وضالون(٢).

لذا كان الجواب ﴿قالوا أمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ على سبيل القطع والاستئناف كأنه قيل ماذا قالوا؟ على طريق الفصل في المحاورة وهو قول نفسي حصل حين ألقى الله في قلوبهم تصديق عيسى- عليه السلام فكأنه خاطبهم فأجابوه ﴿قالوا أمنا وأشهد بأننا مسلمون..﴾ أي مخلصون للإيمان، فقد كانت إجابتهم بقولهم (أمنا) لأنهم اعتبروا إجابة دعوتهم هي من إجابة دعوة الله، وأنهم إذا كانوا نصراءه فهم نصراء الله تعالى، ولذا قالوا (أمنا) أي أمنا بالله وبرسوله، كما أنهم فهموا أن نصرته تكون بإخلاص النية لله تعالى، وتصفية نفوسهم من كل أدران الهوى، حتى تكون خالصة لله تعالى، ولذلك أردفوا قولهم هذا بما حكاه سبحانه وتعالى عنهم بقوله تعالى: ﴿أمنا بالله وأشهد بأننا مسلمون﴾ لذا تم الفصل بين الجمل لشبه كمال الاتصال.

وقد عبر النظم الكريم بالفعل (أمنا) دون الاسم وذلك لأن قوله (أمنا) تدل على الزمن الحاضر وفقًا لسياق هذه الأية لأن هناك حوارًا مباشرًا ما بين متكلم ومتلق،

(١) "البحر المحيط": (٤/٦٥).
(٢) "الشعراوي": (٤/٣٣٧).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

والحوار عادة يتم في الزمن الحاضر، والمعنى أمنا الآن: أي في لحظة التكلم، فعبر سبحانه بذلك اللفظ دون غيره لبيان أن إيمانهم قد وقع وهو واقع متحقق لا محالة.

وبالتأمل الدقيق في قوله ﴿أمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ ولم يقولوا (أمنا بالله) وذلك لأنهم لو قالوا ذلك (أمنا بالله) بدلاً من (أمنا) لكان المعنى أنهم أمنوا بالله فقط ولم يؤمنوا برسوله، ولكن لما كان الدعوة من الله إليهم أن يؤمنوا به سبحانه وبرسوله لذا كان الجواب (أمنا) أي أمنا بالله وبرسوله، يعكس ما ورد في سورة آل عمران ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ فالسؤال عن الأنصار لله لذا كان الجواب مقيداً ومخصصاً كما كان السؤال مخصصاً بالله فناسب هذا ذاك.

﴿وأشهد بأننا مسلمون﴾ في قوله (أشهد) قيل إن الخطاب لله أي طلبوا الشهادة من الله ، وفيه تأكيد بليغ على أنهم لم يزايل الإيمان قلوبهم ، وكفي بطلب الشهادة تأكيداً على صدق إيمانهم(١).

وقيل قوله (أشهد) أمر لعيسى عليه السلام، حيث أوحى إليهم أن أمنوا بي وبرسولي (قالوا أمنا) ثم التفتوا إلى نبيهم الذي أمنوا به فقالوا: ﴿أمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ فيه التفات أي أشهد على إسلامنا.

والملاحظ أن في قوله ﴿أن أمنوا بي وبرسولي قالوا أمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ لم يقولوا (مؤمنون) فقد التفت من التكلم للخطاب، وذلك فيه من التأكيد على أن الإيمان لا يظهر وعيسى يحتاج لمن يظهر له علامة من الإيمان وعلامة الإيمان التطبيق (الإسلام)، النبي يريد منهم أن يظهروا إسلامهم وأشهد أننا مطبقون لهذا الإيمان لأن الإيمان يكون ضمنًا.

وإشهادهم عيسى عليه السلام على أنفسهم إشهاد لله تعالى أيضًا، أي اشهد بأننا منقادون لما تريده منا في نصرتك، والذب عنك مستسلمون لأمر الله تعالى فيه، وفي ذلك إقرار

(١) "ملاك التأويل": (١/٣١٠).

منهم بأن دينهم الإسلام وأنه دين كل الأنبياء[١].

وبقولهم هذا يكونون قد جمعوا بين الأمرين، بين إيمان القلب والتطبيق، لكن هؤلاء الذي جمعوا بين إيمان القلب والتطبيق في بعض الأحيان يداخلهم شيء فيريدون أن يطمئنوا، يريدون أن يلمسوا، أن يروا ....

ونلمس ذلك التقديم الرائع في قوله (آمنا) على (مسلمون) فقد قدم الإيمان على الإسلام، وذلك لأن الإيمان صفة القلب وأخر الإسلام لأنه عبارة عن الانقياد والظاهر فكأنهم قالوا: لقد استقر الإيمان في قلوبنا استقرارًا مكينًا، كان من ثماره أن انقادت ظواهرنا لكل ما يأمرنا الله به على لسانك يا عيسى[٢].

ولهذا نجد الرسول الكريم ﷺ يفسر الإيمان بأنه إيمان القلب وخضوعه، وهو الإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه، وفسر الإسلام باستسلام مخصوص، وهكذا في سائر كلامه ﷺ يفسر الإيمان بذلك النوع ويفسر الإسلام بهذا، وذلك النوع أعلى ولهذا قال النبي ﷺ «الإسلام علانية والإيمان في القلب»[٣].

ولو نظرنا إلى ختام الآية الكريمة، نجده سبحانه قد استخدم فيها أكثر من مؤكد على سبيل الخبر الإنكاري الذي يحتاج إلى كثير من المؤكدات، فقد اجتمعت "أن" ولحقت بها "نا" إضافة إلى اسمية الجملة، وفي هذا تأكيد، وأي تأكيد على ثباتهم على الإسلام وأنهم لم يتركوه طرفة عين، ولا أقل من ذلك ولا أكثر.

هذا وقت ختم سبحانه الآية بقوله ﴿بأننا مسلمون﴾ بينما في سورة آل عمران ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢]، وذلك لأن هذه الآية لما ورد فيها التفصيل فيما يجب

---

(١) "التفسير الكبير": (٢٣١/٨).

(٢) "التفسير الوسيط": (٣٣٧/٤-٣٣٨) وينظر في "تفسير القاسمي/ محاسن التأويل": (٢٩٣/٤)، "الإيمان" لابن تيمية ت/ محمد ناصر الدين الألباني: (٢٠٧/١)، ط٥ المكتب الإسلامي ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

(٣) "الإيمان" لابن تيمية: (٢٠٧/١).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

الإيمان به وذلك قوله: ﴿أن أمنوا بي وبرسولي﴾ فجاء على أتم عبارة في المطلوب، وأوفاها، فناسب ذلك ورود "أننا" على أوفى الحالين، وهو الورود على الأصل، ولما لم يقع إفصاح بهذا التفصيل في آية آل عمران حين قال: ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله أمنا بالله﴾ فلم يقع هنا (وبرسولي) إيجازًا للعلم به، وشهادة السياق، ناسب هذا الإيجاز ، كما ناسب الإتمام في أية المائدة الإتمام، وجاء كل على ما يجب ولو ورد العكس لما ناسب(١).

أو لأن ما في سورة المائدة: أول كلام الحواريين، جاء على الأصل، وما في سورة آل عمران تكرار لكلام مهم، فجاز التخفيف، لأن التخفيف فرع، والتكرار فرع والفرع بالفرع أولى(٢).

فالتخفيف في آية آل عمران "أنا" لأن الكلام على مقاصده، لذلك (من أنصاري إلى الله) (قالوا أمنا بالله) مناسبة.

وفي أية المائدة: الكلام على الإيمان وهو إلهام الله لهذه الصفوة أن تؤمن لكن تؤمن بماذا؟

(واذ أوحيت إلى الحواريين) لما عرض عليهم الدين ألهمهم الله ﷻ ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ فألهمهم الله عز وجل الإيمان.

(١) "ملاك التأويل": (٣١٠/١).
(٢) "درة التنزيل وغرة التأويل": (٦٩) وأسرار التكرار في القرآن: (٥٠).

ثالثًا: الآية الثالثة :

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧]

هذه الآية الكريمة من سورة القصص، وسورة القصص سورة مكية، تركز في آياتها على قصة سيدنا موسى في مرحلة الولادة، النشأة، الزواج، العودة إلى مصر، وتحقق وعد الله، وقد نزلت هذه السورة وقت هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، وكان حزينًا لفراق أهله، فأنزل الله سبحانه هذه السورة تطمينًا للرسول ﷺ بأن وعده سيتحقق كما تحقق وعد الله لموسى قال تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه .... المرسلين﴾

وفي قصة سيدنا محمد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص:٨٥].

وهذا تطمين من الله سبحانه لرسوله الذي خرج من بلده بعد ما ناله قومه بشتى أنواع الأذى، وأخبره تعالى أنه كما عاد موسى إلى مصر منصورًا، كذلك سيعود الرسول ﷺ إلى مكة فاتحًا منتصرًا مصداقًا لوعد الله تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى .... المرسلين﴾.

بين يدي الآية:

«تُعد قصة موسى عليه السلام أكثر قصص القرآن ورودًا إذ ذكرت في ثلاثين موضعًا بين إشارة وإيجاز وتفصيل، والظاهر أن الحكمة في ذلك كون موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، وحامل أكبر رسالة إلى بني إسرائيل، واتجهت دعوته إلى أكبر عتاة الأرض، وإلى أكثرها مماطلة وتنصلاً عن دعوة الرسل، إلى بني إسرائيل الذين أعلنوا كفرهم جهارًا نهارًا،وقداقتضت الحكمةالإلهية، أن يقص علينا القرآن الكريم قصة موسى عليه السلام منذ ولادته حتى إتمام إبلاغ رسالته، اهتمامًا بتلك السيرة الحافلة بالمواقف والأحداث، التي تتجلى فيها يد العناية الإلهية بصاحب تلك الرسالة السماوية، تسلية لصاحب أعظم الرسالات، سيدنا محمد ﷺ إلى خير الأمم، بكل ما تكتنزه من العبر والعظات، والآيات الباهرات،

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

ففي حلقة من حلقاتها تحمل فرضًا دينيًا يبرز وله صلة بأهداف القرآن العليا»[١].

وقد اختصت سورة القصص بتفصيل القصة منذ ولادة موسى مرورًا بنشأته، وفتنته وخروجه إلى أرض مدين، وسيره بأهله إلى الوادي المقدس، والتكليف بالرسالة كما تعرضت لحلقة دعوة فرعون باختصار.

مناسبة الآية الكريمة بما قبلها:

بدأت السورة الكريمة بقوله: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص:٣] بتقرير إلهي بصيغة الجمع لقصة رسول كريم مع كافر، ثم قال سبحانه ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٣-٤].

«وهو مشهد مقدمة لما يتلوه من حلقات القصة ومشاهدها في سورة القصص، فهو مشهد تكثيفي لمجملها، إذ بين الأحداث والشخصيات الرئيسة فيها، ثم عاقبة القصة ومغزاها والغاية منها، فكانت بذلك تمهيدًا مشوقًا، لمعرفة تفاصيل ما آلت إليه تلك العاقبة التي تتجلى فيها الإرادة الإلهية على جهة التعظيم، وهذه الطريقة في عرض القصة القرآنية تعد من الخصائص الفنية التي تفردت بها»[٢].

ولما قال سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص:٥] ابتدأ بذكر أوائل نعمه في هذا الباب بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧][٣].

«وذلك مناسبة لجو السورة العام الذي يدور حول الصراع بين قوة الحكم والسلطان الذي تمتع به فرعون، والقوة الإلهية القاهرة التي تعمل في الخفاء، لذلك رسمت

(١) "التصوير الفني في القرآن الكريم": (١٣٣).
(٢) "التصوير الفني في القرآن": (١٤٦-١٤٧)، "الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم": (٢٩٠).
(٣) "تفسير الرازي": (٥٧٩/٢٤).

هذه الآيات الجو الذي تدور فيه الأحداث، والظرف الذي يجري فيه القصص ويكشف عن الغاية المخبوءة وراء الأحداث»[١].

«ثم تأتي الخطوة الأولى في تحقيق مراد الله تعالى الذي يتم عبر عدة خطوات ويستغرق زمنًا طويلاً ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

فالخطوة الأولى تبدأ بأم ترضع ابنها وبقصة مولد أمه بطفل يرمى في البحر، بعدها أرضعته أمه، فما أعظم هذه الثقة بوعد الله من أم موسى؟ فقد أوحي إليها - سبحانه- أن إذا خفت عليه فالقيه في اليم، أي أم يمكن أن تفعل ذلك؟! هي أم موسى لأنه تعالى قال وقوله الحق ووعده حق ﴿إنا رادوه إليك﴾ ثم يلتقط موسى الرضيع أشد أعدائه، فيقذف تعالى حب موسى في قلب زوج فرعون»[٢].

فقد تحقق وعد الله مع موسى ﴿وأوحينا إلى أم موسى...﴾ تحقق في قوله: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص:١٣].

والوعد الآخر ﴿جاعلوه من المرسلين﴾ تحقق الوعد في قوله ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص:٣٠].

تحققت وعود الله لرسوله الكريم كما تحققت من قبل لموسى وما ذلك إلا لأن وعد الله يتحقق لعباده المتقين والذين لا يريدون علوًا في الأرض، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [القصص:٨٣]، وبذلك جاءت حلقات القصة متكاملة متسلسلة الأحداث.

بين يدي الآية الكريمة :

- ﴿وأوحينا إلى أم موسى...﴾أوضحت الآيات السابقة أن الفرج قريب بقوله: ﴿ونريد أن نمن على الذين ...﴾ فلما تعلقت إرادة الله بإنقاذ بني إسرائيل من الذل خلق

(١) "في ظلال القرآن": (٢٦٧٧/٥).
(٢) "التوجيهات الإلهية للفرد المسلم خلال القصص القرآني في سورة القصص" د/ مسلم اليوسف.

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

لهم المنقذ، وهو الذي كان يحذره فرعون على ملكه، فكان يذبح أبناء بني إسرائيل لأجله «وكان من شأن فرعون أنه رأى رؤيا في منامه أن نارًا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط، وتركت بني إسرائيل، وأحرقت بيوت مصر، فدعا السحرة والكهنة ... فسألهم عن رؤياه، فقالوا له يخرج من هذا البلد الذي جاء بنوا إسرائيل منه رجل يكون على وجهه هلاك مصر، فأمر ببني إسرائيل ألا يولد لهم غلام إلا ذبحوه ولا تولد لهم جارية إلا تركت ... »[١].

«وقضينا بأن يسمى موسى بسبب أن يوجد بين ماء وشجر وتربيته في بيت الذي يحذره ويحتاط لأجله، عطف على هذا المعلوم التقدير أول نعمة منَّ بها على الذين استضعفوا»[٢]، فقال ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه....﴾، تصور لنا هذه الآية مشهداً كاملاً من القصة، نابضًا بالحياة ومعبرًا عن تلك المرحلة تعبيرًا صادقًا، بما أكتنزته من بلاغة النظم، ودقة التعبير، وبراعة التصوير، وهو المشهد الحقيقي لبداية القصة وولادة الشخصية الرئيسة معلنة التحدي أمام القوى الزائفة، وتتكشف فيها يد القدرة في ظل الظروف القاسية التي واجهتها شخصية الأم الحنون»[٣].

قوله: ﴿وأوحينا إلى أم موسى ...﴾

عطف جملة على جملة ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا ..﴾ إذ الكل من أجزاء النبأ، وتتضمن هذه الجملة تفصيلاً لمجمل قوله ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا﴾ فإن الإرادة لما تعلقت بإنقاذ بني إسرائيل من الذل خلق الله المنقذ لهم[٤].

«فجاءت الآية امتدادًا تفصيليًا لمجمل الامتنان الإلهي، وإيثار هذا الأسلوب يحقق زيادة في تمكين المعنى من الإظهار والوضوح، لأن الشيء إذا أبهم ثم فسر كان أوقع

(١) "جامع البيان": (٣٤/٢).
(٢) "نظم الدرر": (٤٦٥/٥).
(٣) "في ظلال القرآن": (٢٦٧٨/٥).
(٤) "التحرير والتنوير". ج ٢٠/ ٧١

في النفس وأفخم في الشأن»[١].

قوله: (أوحينا) قال ابن منظور: «الوحي الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك، يقال: وحيت إليه الكلام، وَوَحى وَحْيًا و أوحى أيضًا، أي: كتب، والوحي: المكتوب والكتاب أيضًا، وعلى ذلك جمعوا فقالوا: وَحِيَّ مثل حُلِيَّ وحُلِي»[٢].

وقال الراغب: «معنى الوحي الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة، قيل: أمر وَحْيَ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة، ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه: وحي»[٣].

وعلى ذلك فقد اختلف العلماء في الإيحاء إلى أم موسى على النحو التالي:

قالت فرقة: كان قولاً في منامها[٤]، وقال قتادة: كان إلهامًا وقذفاً في القلب[٥] وليس بوحي نبوة[٦]، وقيل: كان بملك تمثل لها، وقيل: ألقينا في قلبها[٧].

والواضح هنا أنه: «وحي إلهام يوجد عنده من انشراح الصدر ما يحقق عندها أنه خاطر من الواردات الإلهية، فإن الإلهام الصادق يعرض للصالحين فيوقع في نفوسهم يقينًا ينبعثون به إلى عمل ما ألهموا إليه، وقد يكون هذا الوحي برؤيا صادقة رأتها»[٨].

وجملة أمر أم موسى أنها علمت أن الذي وقع في نفسها هو من عند الله ووعد منه، يقتضي ذلك قوله تعالى بعد: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إلى أُمِّهِ...﴾ [القصص:١٣] وهذا معنى قوله:

---

(١) "فتح البيان في مقاصد القرآن": (١٩٠/٢) أبو الطيب القنوجي.
(٢) "لسان العرب": مادة وحي (٣٧٩/١٥).
(٣) "معجم مفردات ألفاظ القرآن": (٥٥٢).
(٤) "تفسير ابن عطية": (٣٧٩/١٥).
(٥) "البحر المحيط": (٢٧٦/٤).
(٦) "جامع البيان": (٣٧/٢).
(٧) "تفسير غريب القرآن: (٣٢٨).
(٨) "التحرير والتنوير". ج ٢٠ / ١٧،٧٢

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [القصص:١٠].

هذا: وقد اعتقد قوم من الجهلة لم يفهموا المراد من الوحي الإلهي والإيماني في بعض الحالات فزعموا استنادًا إلى قصتي أم موسى ومريم عليهما السلام، جواز إرسال النساء نبيات، وقد تأثروا في ذلك بما ورد في التلمود[١] من كون أم موسى نبية فوافقوا بذلك اليهود، وسياق آيات سورة القصص مع قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۗ﴾ [يوسف:١٠٩]، [النحل:٤٣].

يدل على خلاف ذلك في المفهوم الإيماني، وذلك أن سورة القصص ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١١ ۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص:٧-١٣]، قررت في الوحي الإلهي لأم موسى جملة حقائق «تبطل نبوتها التي توهمها المتوهمون، إذ قررت الآيات هناك لأم موسى:

١. الأمر بالإرضاع.

٢. الأمر بالإلقاء في اليم.

٣. الأمر بعدم الخوف والحزن.

٤. الربط على قلبها.

٥. علمها بأن وعد الله حق.

(١) "الكنز المرصود في قواعد التلمود": (٢٢٧-٢٢٨)، ط الرابعة، دار العلوم/ بيروت لبنان، د.ت مجهول المؤلف.

وليس في هذه التقريرات ما يتعلق بالنبوة والأنبياء، ولا الرسالة والرسل، فبان بذلك كونها غير نبية، وبان بأن الوحي هاهنا هو مفهوم الأمر الإلهي الخاص على ما قرره الأقدمون»[١].

«وقد أثر التعبير القرآني إطلاق كنية (أم موسى) دون التصريح باسمها، وهذا من لطائف الأسلوب القرآني بعدم التصريح بأسماء النساء لملحظ نفسي، إلا لغرض يقتضيه مثل، التصريح باسم مريم عليها السلام في جميع مواضع ذكرها في القرآن لغرض عقدي مهم اقتضته الحكمة الإلهية، وهو نفي ألوهية عيسى- عليه السلام وتقرير حقيقة البشرية بتأكيد ولادته وهو ما يتناقض مع صفة الألوهية لإبطال عقيدة الإشراك عند النصارى، وإلى جانب هذا المعنى اللطيف حققت هذه الكنية غرضًا فنيًا في إبراز شخصية الأم التي سخرت من أجل بناء الشخصية المحور "موسى" بناءً ماديًا وفنيًا، إذ يظهرها السرد من البداية، بعد أن أرضعت ابنها في جو مشحون بالضغط والخوف، منذ علمت أن فرعون يسعى لقتل كل مولود، وهذه هي خاصية تقديم الشخوص في القص القرآني، فضلاً عن ملاحظة اهتمام السرد -هنا- بشخصية الأم دون الأب، لعلة أمومية تربوية تفرضها طبيعة المرحلة التي تقتضي وجود الأم إلى جانب الرضيع»[٢].

- قوله: ﴿أن أرضعيه﴾

قال ابن منظور: «رضع الصبي وغيره يَرضعُ مثال ضرب يضرب، لغة نجدية، وترضع مثال سَمِع يرضع رَضَعًا ورَضِعا ورَضاعًا ورِضاعًا ورضاعة، فهو راضع، والجمع رُضْع»[٣].

«و (أن أرضعيه) تفسير لـ (أوحينا) والأمر بإرضاعه يؤذن بجمل طويت وهي: أن الله لما أراد ذلك قدر أن يكون مظهر ما أراده هو الجنين الذي في بطن أم موسى ووضعته

(١) "سورة القصص دراسة تحليلية": (١٥٩-١٦٠)، تأليف د/ محمد مطني دكتوراه في التفسير/ كلية العلوم الإسلامية/ جامعة الأنبار، د.ت.
(٢) "مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية" (٢٩-٣٠) شارف مرازي.
(٣) "لسان العرب": (١٢٥/٨) مادة رضع.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

أمه، وخافت عليه اعتداء أنصار فرعون على وليدها، وتحيرت في أمرها فألهمت أو أريت ما قصه الله هنا وفي مواضع أخرى»[١].

«والإرضاع الذي أمرت به يتضمن أن: أخفيه مدة ترضعه فيها فإذا خفت عليه أن يعرف خبره فألقيه في اليم، وإنما أمرها الله بإرضاعه لتقوى بنيته بألبان أمه، فإنه أسعد بالطفل في أول عمره من ألبان غيرها، وليكون له من الرضاعة الأخيرة قبل إلقائه في اليوم قوت يشد بنيته فيما بين قذفه في اليم وبين التقاط آل فرعون إياه وإيصاله إلى بيت فرعون»[٢].

وقد اختلف العلماء في الوحي إلى أم موسى بالإرضاع على عدة آراء:

- نقل القرطبي عن مجاهد قوله: «بأن الوحي إليها بالرضاعة كان قبل الولادة»[٣].

- وذكر أبو حيان في تفسيره: «أن هذا الإيحاء هو بعد الولادة فيكون ثم جملة محذوفة، أي: وضعت موسى أمه في زمن الذبح وخافت عليه»[٤].

- أخرج ابن أبي حاتم عن أبن أبي عبد الرحمن الحلبي أن الله أوحى إلى أم موسى حين وضعت أن ترضعه، وأخرج عن مجاهد أن الله أوحى إلى أم موسى حين تقارب ولادها أن أرضعيه»[٥].

والراجح أن «هذا الوحي إليها كان عند ولادته وأنها أمرت بأن تلقيه في اليم عندما ترى دلائل المخافة من جواسيس فرعون وذلك ليكون إلقاؤه في اليم عند الضرورة دفعًا للضرر المحقق بالضرر المشكوك فيه ثم ألقى في يقينها بأنه لا بأس عليه»[٦]، وطمأنها ربها بأن ترضعه ليتقوى للمهمة اللاحقة، وهي المدة التي يستغرقها في سيرة في

(١) "التحرير والتنوير". ج ٢٠/ ٧٢
(٢) "التحرير والتنوير". ج/ ٢٠/ ٧٣
(٣) "الجامع لأحكام القرآن" : (٤٩٦٦/٦).
(٤) "البحر المحيط": (١٠٥/٧).
(٥) "تفسير أبن أبي حاتم": (٢٩٤١/٩-٢٩٤٢).
(٦) "التحرير والتنوير". ج٢٠/ ٧٣

اليم لحين وصوله إلى قصر فرعون، ثم عودته إلى أمه بعد معجزة تحريم المراضع.

وقوله (أن أرضعيه) فيه دلالة على أنها أرضعته وليس في القرآن حد ذلك، فإذا خفت عليه أن يفطن به جيرانك ويسمعوا صوته عند البكاء فألقيه في اليم[١].

- ﴿فإذا خفت عليه﴾

عبر النظم الكريم بقوله (إذا) دون (إن) وذلك لأن (إذا) تستعمل إذا كان المتكلم جازمًا بوقوعه، أو يغلب على ظنه[٢].

كما أن في استخدام (إذا) دلالة قاطعة بأن الخوف على ابنها أصبح ملازمًا لشخصية الأم لا يفارقها ولا ينقطع عنها.

والخوف هو: "توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة[٣] وأم موسى حينما خافت على مولودها من القتل كان ذلك بأمارة معلومة، فهي ترى بعينها يوميًا عشرات الأطفال يذبحون، وذكر القرطبي «أنها اتخذت له تابوتًا من بردي وقيدَّته بالقار من داخله، ووضعت فيه موسى، وألقته في نيل مصر»[٤].

وهنا تتلقى الأم الأمر بإلقائه مقتديًا بالبشارة العاجلة بإنجائه ورده (فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلون من المرسلين).

قوله (فألقيه) عطفت الجملة على ما قبلها بالفاء تضم الشيء إلى الشيء كما فعلت (الواو) غير أنها تجعل ذلك متسقًا بعضه في إثر بعض[٥].

فالفاء أوحت بسرعة وقوع الأحداث وتواليها وتتابعها، وذلك يناسب مجريات الأحداث، وتصاعدها إلى بؤرة الحدث.

---

(١) "تفسير الرازي": (٢٤/٥٧٩).
(٢) البلاغة فنونها وأفنانها "علم المعاني": (٢٣٩) فضل حسن عباس.
(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن: (١٦١).
(٤) "الجامع لأحكام القرآن": (٦/٤٩٦٧).
(٥) "الكتاب": (٤/٢١٧).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

و«إنك لتعجب لهذه اللغة التي اختارها الله وعاء لكتابه، وكيف توائم بين الألفاظ ودلالتها في إحكام يشهد بأن الله أسبغ عليها ما يؤهلها لاستيعاب أسرار الإعجاز في القرآن المجيد، والدليل على ذلك أنها اختارت اللفظ الأقصر صوتًا والأسرع نطقًا ليدل على سرعة تعاقب الأحداث، كما هو شأن الفاء المكونة من حرف واحد يمر بظاهر الشفة همسًا وكأن ما عبر عنه من الأحداث يمر بسرعة صوته[١].

فهذه (الفاء) طوت الزمن بين الإرضاع والخوف عليه ثم الإلقاء.

ويتجلى قمة اليقين بوعد الله لأم موسى (فألقيه في اليم) «فالإنسان العادي لو قال لامرأة تحمل رضيعها إن خفت على ابنك فألقيه في البحر، هذه المرأة لن تصدق هذا القائل، لكن أم موسى تلقت هذا الوحي من الله، والتلقى من الله لا يصادقه فكر شيطان ولا فكر بشر، فالإلهام من الله يتجلى في قوله: (وأوحينا إلى أم موسى) وما دام الله هو الذي ألهمها، فإن خاطر الشيطان لا يجئ، ولذلك قامت أم موسى بتنفيذ أمر الله، ويطمئنها الله فقال لها: (ولا تخافي ولا تحزني ...).

وقوله: (فألقيه) أي بعد أن تضعيه في شيء يحفظه من الماء[٢]، قوله (في اليم) أي في النيل الذي كان يشق مدينة فرعون من حيث منازل بني إسرائيل، واليم في كلام العرب مرادف للبحر، والبحر في كلامهم يطلق على الماء العظيم المستبحر، فالنهر العظيم يسمى بحرًا»[٣].

- هنا تتلقى الأم الأمر الإلهي بإلقائه، فعلت الأم «ولم تخالف، والحالة تؤذن بالهلاك ولم تخالف ولا ترددت، ولا حكمت عليها البشرية بأن هذا من أخطر الأنباء فدل على أن الوحي أقوى سلطانًا في نفس الموحي إليه من طبعه الذي هو عين نفسه، قال

(١) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم "الفاء وثم"، د/ محمد الخضري، ص١٠، مكتبة وهبة، ط أولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
(٢) "نظم الدرر": (٤٦٥/٥).
(٣) "التحرير والتنوير": (٧٤/٢).

تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾، وحبل الوريد من ذاته، فإذا زعمت يا ولي ...بأن الله أوحى إليك فأنظر نفسك في التردد والمخالفة، فإن وجدت لذلك أثر تدبيرٍ أو تفصيلٍ أو تفكر فلست بصاحب وحي، فإن حكم عليك وأعماك وأصمك وحال بينك وبين فكرك وتدبيرك وأمضى حكمه فيك، فذلك هو الوحي، وأنت عند ذلك صاحب الوحي»[١].

«قيل: أنها لما أتت به لتلقيه في النيل تصور لها إبليس في صورة حية سوداء، وقال: إن ألقيته في اليم ابتلعته، فعلمت أنه إبليس، فسمعت النداء، ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين قال: فطرحته في النيل، فقيل: إنه بقى في الماء أربعين ليلة، وقيل: ثلاثًا، وقيل ليلة واحدة»[٢].

«بعد ما تلقت الأم الأمر بالإرضاع والإلقاء عن طريق الوحي أدركت أن هذه الأوامر والتعليمات إنما هي توجيه رباني، وخاصة حينما اقترنت هذه الأوامر بالبشارة الربانية العاجلة بإنجائه ورده إليها (فألقيه في اليم ولاتخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) فقد نهاها ﷻ عن الخوف والحزن وبشرها بعودته وأنه سيكون من المرسلين، ولا بد أن أم موسى أدركت مصدر هذا الإلهام، وعرفت أنه من الله ولهذا نفذت ما أمرت به وأطمأنت، ولولا ذلك لما نفذت هذا الأمر الذي لا يمكن لأم أن تفعله وكيف يمكن لأم أن تلقي وليدها في اليم لمجرد خاطر عابر لا تعرف مصدره، وهو أمر خارج عن نطاق الفطرة، فالفطرة تأبى أن تلقى الأم وليدها في اليم، وما فعلته أم موسى خارج عن نطاق الفطرة»[٣].

«فتتجلى يد العناية الإلهية بانتشاله من أيدي المخاطر وبتكريمه بالرسالة، في جو يسوده السكون والطمأنينة، والجرس الخفيف الذي يلامس النفوس قبل الأسماع بريشة

(١) "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز": (١٧٨/٥).
(٢) "نهاية الأرب في فنون الأدب": (١٨٠/١٣).
(٣) بتصرف من المدخل إلى علوم القرآن: (٣٣).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

العناية، لأن المقام وجو السورة يقتضيان هذا اللطف تخفيفًا للضغوط النفسية والشكوك التي لم تزل تراود شخصية (الأم) الحنون»[١].

وقد عبر النظم الكريم بقوله (فألقيه) ليلائم المقام فالأم مضطربة منزعجة خائفة وتريد نجاته، فيعلوها الاضطراب والخوف والفزع، وإذا الإلهام يجيئها بإلقائه باليم، فلا بد من اختيار كلمة تدل على اللطف والمؤانسة وإثلاج قلبها باختيار هذه اللفظة دون غيرها وبكونها لا تخاف ولا تحزن وهكذا يكون الاطمئنان في مواطن الخوف، والقرار في موطن الاضطراب والسكون في موطن الهلع، يغيب عنها فلذة كبدها فيفزع قلبها، ويغلب الفزع على الاطمئنان وهي تغالب حال الفزع بحال الاطمئنان، إلى أن وعد الله بالاطمئنان نافذ ويصطرع الأمران في نفسها، يغلب الإلهام فتطمئن ويغلب الفزع القلبي.

ومما يؤكد هذا المعنى (الإلقاء) وما يصاحبه من الاطمئنان والمؤانسة، ذلك الإطناب في قوله: (ولا تخافي ولا تحزني)، فالخوف هو: توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة[٢]، وهو غم يلحق الإنسان لمتوقع، والحزن غم يلحقه لواقع وهو فراق موسى والأخطار المحدقة به، فنهيت عنها جميعًا، وأوعدت ما يسليها ويطمأن قلبها، ويملؤها غبطة وسرورًا: وهو رده إليها وجعله من المرسلين[٣].

والمراد بالخوفين هنا حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر، المراد بالأول: الخوف عليه من القتل، لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه، وأما الثاني: فالخوف عليه من الغرق والضياع ومن الوقوع في يد بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان، وغير ذلك من المخاوف[٤].

ولقائل أن يقول: ما الفرق بين الخوف والحزن حتى عطف أحدهما على الأخر في

---

(١) الإعجاز البلاغي في القصة القرآنية: (٦٤) د/عدنان مهدي.
(٢) "معجم مفردات ألفاظ القرآن": (١٦١).
(٣) "الكشاف للزمخشري": (١٤٠٧/٣)، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه": (٢٢٩/٢٠) محمود صافي.
(٤) "الكشاف": (١٤٠٧/٣).

قوله: (ولا تخافي ولا تحزني)؟ ثم أليس من التناقض أن يثبت الخوف في قوله (فإذا خفت عليه) ثم ينفيه بقوله (ولا تخافي)؟

والجواب على التناقض المزعوم أن الخوف الأول مثبت وهو خوف الذبح، والثاني هو غرقه في النيل، فاندفع ما يتوهم من تناقض ، والخوف المثبت غير الخوف المنفي، لاختلاف متعلق الفعل وما يقع عليه في الجملتين ، والمفعول قيد للفعل وهو مختلف ، وهو محذوف في الجملتين للعلم به من سياق القصة .

وأما الاعتراض الأول، فهو يندفع بأن هذا من باب الإطناب، بل هو قسم نادر من أجمل أقسامه، وهو أن يذكر الشيء فيؤتى فيه معان متداخلة إلا أن كل معنى مختص بخصيصه ليست للآخر، وهذا يدل على إعجاز الأسلوب القرآني في كونه توهم أحيانًا شيئًا فإذا ما قرأه القارئ المتمعن بأن له خلاف ما توهمه، وتلك سمة من سمات إعجازه»[١].

وقد عطف سبحانه (ولا تحزني) على (ولا تخافي) وسبب اقترانهما هو «أنهما من أكثر الانفعالات التي تكرر صفو حياة الإنسان»[٢] فوجدت المناسبة التامة بينهما لذا تم عطفهما للتوسط بين الكمالين.

«كما قدم النظم الكريم الخوف على الحزن ولذلك يرجع للسببية من حيث إن الخوف كثيرًا ما يكون سببًا للحزن، وقد يرجع ذلك إلى أن شعور الإنسان بالأمن أكثر أهمية من شعوره بالسرور، إذ ليس عند الإنسان من أن يأمن على نفسه من السوء والعقاب فقدم الأهم الخوف على المهم وهو عدم الحزن»[٣].

كما أن الشعور بالأمن وعدم الحزن إذا سيطرا على الإنسان فشعر بالاطمئنان فإنه لا يحزن لأن كلاً منهما مرتبط بالآخر فإذا أمن الإنسان سر، وإذا خاف الإنسان حزن، وشيء آخر أن مجيء الجملتين (فإذا خفت) و(لا تخافي) هكذا فيه لون بديعي

(١) "إعراب القرآن وبيانه وصرفه": (٥/٢٨٥).
(٢) "القرآن وعلم النفس": (٩٣) محمد عثمان نجاتي.
(٣) "الألفاظ النفسية في القرآن الكريم دراسة دلالية" د/ أيمن توفيق الوتاري، رسالة ماجستير، لكلية الآداب – جامعة الموصل، ص ٩٩، ١٤١٤/١٩٩٤.

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

خلاب هو طباق السلب[١].

وذلك من شأنه توضيح النقيضين فيكون المتلقي على بينة كاشفة من أمره فيختار لنفسه أي الحالتين يريد، وهذا شأن الطباق إذ يعمل على إيضاح المعنى وإظهاره وتقويته عن طريق المقارنة بين الضدين، خاصة إذا كان المعني هو الذي طلبه واستدعاه كما هو الشأن في كل بديعيات القرآن الكريم، يقول الإمام عبد القاهر: «وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع، فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة، من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب»[٢].

وهكذا رسمت الألفاظ والكلمات في أذهان المتلقي صورة واقعية للأحداث بين الخوف الغريزي الذي ينتاب الأم والنهي عن الخوف الذي لا ينبغي أن ينتاب من ثبته الله تعالى وأيده بالوحي، وهي صورة حية «ملؤها الهدوء والاستقرار في إلقاء الأحداث وتلقيها في المستقبل ثم الاسترخاء والإتزان في تقبل الأحداث والتصرف فيها»[٣].

وهكذا بعد أن نهى الله أم موسى بعدم الخوف والحزن أراد طمأنتها من خلال المبشرات التي أعقبت النهي، لتقوية قلبها، وإزالة خوفها وحزنها، فهي متشوقة لمعرفة مصير وليدها فتأتي المفاجأة بتلك البشارتين الأولى (إنا رادوه إليك) وهذا أهم شيء يشغل بالها، والبشارة الثانية: هي البشارة بمستقبله بأن سيكون من المرسلين (وجاعلوه من المرسلين) وذلك عن طريق الاستئناف البياني.

فحينما أمرها ﷺ بالإرضاع والإلقاء ونهاها عن عدم الخوف والحزن، كل هذا أثار عدة تساؤلات في قلب هذه الأم المكلومة فتأتي الآية (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) جوابًا عن سؤالها: ما مصير هذا الوليد؟ ... فتأتي الجملة الثانية لتجيب عن

(١) "ينظر الإيضاح": (١١/٦).
(٢) أسرار البلاغة: (٢٠).
(٣) الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: (٢٩٣).

السؤال «وتكون بذلك أطفأت أشواق النفس وأشبعت تطلعه العاطفي إلى المجهول، وبهذا تتحقق المتعة النفسية»(١).

يقول الإمام بعد القاهر «وجملة الأمر أنه ليس إعلامك الشيء بغتة غفلاً مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له، لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام»(٢).

كما أكد هذا المعنى ووضح هذا الإبهام الذي ملأ المكان لمعرفة مصير الرضيع تطالعنا الآية الكريمة بفن آخر من فنون البلاغة ليسهم بدورة عن التشويق الفني في عرض القصة، وذلك من خلال تصدير الجملة المستأنفة بـ"إن" ومجيء الجملة الاسمية دون الفعلية فالإتيان ب "إن" فيه دلالة قاطعة على الاعتناء والاهتمام بتحقيق هذا الوعد الرباني، وإيثار الجملة الأسمية (وجاعلوه من المرسلين) دون قوله (نرده ونجعله من المرسلين) ليفيد الثبوت والدوام والتأكيد على تحقيق هذا الخير وللاعتناء بالبشارة ومراعاة لمقام الوعد فهو يستحق هذا التأكيد، وهكذا يؤثر التعبير القرآني بعض الألفاظ في سياقاتها المحددة لها ليرسم صورة الموضوع لظله الذي يلقيه في الخيال، فللألفاظ كما للعبارات ظلال خاصة يلحظها الحس البصير حينما يوجه إليها انتباهه، ويستدعي صورة مدلولها الحسية.

كما دلت هذه المؤكدات الكثيرة ومجيء الألفاظ على هذا النحو دون غيره على التحدي الإلهي بهذا الطفل الرضيع لقوة فرعون وجبروته، وليقتحم به حصون فرعون وجيوشه، فيستدل منه على أن الأمن والخوف بيد الله تعالى، فإذا شاءت إرادة الله أن يجعل الخوف أمنًا كإلقاء أم موسى لطفلها في اليم، وإن شاء جعل الأمن خوفًا كما حصل لفرعون إذ قتل مئات الأطفال ليأمن، ولكن الله جعل من أمنه خوفًا، فأدخل موسى إلى

(١) التعبير القرآني والدلالة النفسية: (٣٢٩).
(٢) ينظر : دلائل الإعجاز ص ١٣٢ت محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، بتصرف من التصوير الفني في القرآن: (٧٨)، روائع الإعجاز في القصص القرآني: (٨٧) .

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

قصر من حرص أن لا يدخله، وقتل ما قتل من أجل ذلك.

فدل بذلك على أن الأمر كله بيد الله يرفع أقوامًا ويضع آخرين، وهذا ما أكدته الآيات اللاحقة من سورة القصص وما ختم به (ولا تدع مع الله) ليؤكد للناس ولأمة هذا القرآن أن القوة لله، فهو المعز والمذل وليؤكد على الترابط القرآني بين أوله وآخره(١).

ولا يخفي أيضًا مظهر من مظاهر الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم وأثره الواضح على المعنى والمتمثل في أسلوب الاحتباك بما يتركه من أثر في النفس يتمثل في بعث الفكر وتنشيط الخيال وإثارة الانتباه، ليقع السامع على مراد الكلام، ويستنبط معناه من القرائن والأحوال (حيث ذكر الإرضاع أولاً دليلاً على تركه ثانيًا، والخوف ثانيًا دليلاً على الأمن أولاً، وسره أنه ذكر المحبوب لها تقوية لقلبها وتسكينًا لرعبها)(٢).

كل هذا وغيره امتلأت به كتب التفسير إلا أن التعبير ركز هنا على جوهر الحدث بصرف النظر عن بعض الملابسات، إذ لا فائدة فيها، فلم تذكر الآية الكريمة، كيف أرضعت أم موسى وليدها، وكيف حافظت عليه لحين وصولها إلى اليم، وكيف ألقته؟ «وفق ما تقتضيه الطرق الفنية في عرض القصة القرآنية، وذلك بإبراز المشاهد بالقدر الذي يخدم الهدف، وإطلاق العنان لخيال القارئ ليملأ الفجوات الفنية، وبهذا يتضح دور البلاغة القرآنية المعجزة في تأدية وظيفتها الفنية في عرض المشهد القصصي- بكل ملابساته وأحوال شخصياته، حتى يترك القارئ يعيشه غضًا، ويشاهد بصيرته، وكأنه يُعرض من جديد، لاسيما في هذه الآية الكريمة(٣).

فالذي يهمنا أن نعرف ما يؤمئ إليه النص من حقائق، والقصص صادق وواقع، ولكن نترك ما تركه القرآن، ولا نهيم في إسرائيليات صادقة أو كاذبة، والنص القرآني

(١) سورة القصص دراسة تحليلية: (٢٣٠) د/ محمد مطنى.
(٢) "نظم الدر": (٢٤٤/١٤) ، وينظر: الاحتباك في القرآن الكريم ، د إبراهيم صلاح الهدهد
(٣) التصوير الفني ١٤٥

واضح في مقصده من غير حاجة إلى ما يوضحه في خارجه»[١].

«وقد عُدت هذه الآية الكريمة من الدلائل على الإعجاز القرآني حيث اشتملت على أمرين ونهيين وخبريين وبشارتين فالخبران هما (وأوحينا إلى أم موسى) و قوله (فإذا خفت عليه) لأنه يشعر بأنها ستخاف عليه، والأمران (أرضعيه) و (ألقيه)، والنهيان (لا تخافي) و (لا تحزني) والبشارتان (إنا رادوه إليك) و (وجاعلوه من المرسلين)»[٢].

وقد جاءت في أسهل نظم، وأسلس لفظ وأوجز عبارة، ولم يخرج بالكلام عن حقيقته[٣].

مع ما يتركه النظم من الجرس الموسيقي المتهدر، فقد بدأت الآية الكريمة بداية هادئة، ثم أخذ إيقاع جرسها يتصاعد ثم يهبط بالسكينة والطمأنينة على أم موسى، وهذا التصاعد والهبوط ترسمه لنا الألفاظ (أوحينا - أرضعيه - لا تخافي - لا تحزني - رادوه - جاعلوه) فتتجلى القيم الصوتية في تلك الألفاظ لتجمل في طياتها دفقات شعورية تتلاءم وطبيعة المتلقي الحسية[٤].

وقبل أن نصل إلى نهاية المطاف ونودع أبطال هذه القصة المشوقة بأحداثها وشخصوها، لابد من أن ننوه إلى شيء في غاية الأهمية، وهو: إن بعض المدعين تقَّول على القرآن الكريم وقال بأن فيه تكراراً وخاصة في قصة سيدنا موسى ﷺ، وللجواب على هذا الادعاء نذكر ما قاله الإمام الشعراوي في هذا المقام وهو: أن القصص في القرآن لا ترد مكررة، وقد يأتي بعض منها في آيات، وبعض منها في آيات أخرى، ولكن اللفظة مختلفة، تعطينا كل آية معلومة جديدة، بحيث أنك إذا جمعت كل الآيات التي ذكرت في القرآن الكريم، تجد أمامك قصة كاملة متكاملة، كل أية تضيف جديدًا، وأكبر قصص

(١) "زهرة التفاسير" الشيخ/ محمد أبو زهرة: (٤/٢١٢٢).
(٢) "الجامع لأحكام القرآن": (٦/٤٩٦٨).
(٣) "البرهان في إعجاز القرآن": (٢٦٥-٢٦٦).
(٤) جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقد عند العرب، ماهر مهدي هلال (١٣٣).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

القرآن، قصة موسى ، ويذكرنا القرآن بها دائمًا لأن أحداثها تعالج قصة أسوأ البشر في التاريخ، وفي كل مناسبة يذكر الله بلقطة من حياة هؤلاء، حيث قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧]، وفي آية أخرى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ...﴾ [طه:٣٨-٣٩].

والفهم السطحي يظن أن هذا تكرار، نقول لا فقوله تعالى في سورة القصص، هذه لقطة تدل على أن الله -سبحانه- يُعد أم موسى إعدادًا إيمانيًا للحدث، ولكن عند وقوع الحدث تتغير القصة على نمط سريع (أن أقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل)

كلام يناسب لحظة وقوع الحدث فالآية الأولى بينت أن أم موسى أرضعته قبل أن تضعه في التابوت، وأنها ستلقيه في اليم عندما يحدث خطر وتخاف عليه من القتل، وفيه تطمين لها، ألا تخاف ولا تحزن، لأن الله منجيه.

نأتي إلى الآية الثانية التي تكمل لنا هذه اللقطة فقوله: (اقذفيه في التابوت) نعم أن أم موسى ستلقيه في تابوت، وهو ما لم يذكر في الآية السابقة، ثم بعد ذلك نعلم أن الله سبحانه وتعالى أصدر أمره إلى الماء أن يلقي التابوت إلى الساحل، وهذا لم يرد في الآية السابقة[١]، والسر في اختيار اللفظ بين الأمرين أن الأول توجه مباشرة إلى الأم (فألقيه) فجاء هذا الفعل بهذا اللفظ وبتلك المؤانسة لأنه ليس في الإلقاء من الشدة والقوة ما في القذف، إذ جاء التعبير بالقذف في سياق إخبار موسى، وهو في طريقه إلى فرعون كي يوطن نفسه على ما يلقاه من الصعاب وهنا يكمن سر الإعجاز في التعبير، هي كذلك عمدة في إبراز المعاني النفسية[٢].

ثم نعرف أيضًا أن الذي سيأخذه وهو فرعون، ستكون بينهما عداوة متبادلة،

(١) "تفسير الشعراوي": (١/٢٣٧-٢٣٨).
(٢) قصص القرآن (٤٨٧)، التعبير القرآني والدلالة النفسية (٣٦٥).

وهكذا نرى أن آيتي القصة، يكمل بعضهما بعضًا، وليس هناك تكرار، والله -سبحانه- في الآية الثانية يريد أن يثبت أنه سيكون هناك عداوة متبادلة بين موسى وفرعون.

كما أثبت عداوة فرعون لموسى، فقال ﴿عدو لي عدو له﴾ ولكن العداوة لا تستقر إلا إذا كانت متبادلة، فتأتي آية ثالثة لتكمل اللقطة ﴿**فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا**﴾ [القصص:٨].

وهكذا بينت لنا الآية الكريمة كيف أن العداوة بين فرعون وموسى ستستقر حتى يقضي على فرعون، إذن هذه الآيات ليست تكرارًا ولكنها آيات تكمل القصة وتعطينا الصورة الكاملة المتكاملة.

وما هذه اللقطات إلا ليثبت بها الله ﷻ نبيه الكريم والمؤمنين، فتأتي هنا لقطة وهنا لقطة، لتؤدي ما هو مطلوب من التثبيت بما لا يخل مع المطلوب.

وبهذا ينتهي مشهد الأم الحائرة الخائفة القلقة وهي تتلقى الإيحاء بالبشارة المطمئنة، ولكن كيف ستجري الأحداث وتوافيها بهذا الوعد الإلهي؟ وهنا يسدل الستار ليستأنف في المشهد التالي.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

رابعًا : الآية الرابعة :

قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١].

مناسبة سورة مريم لما قبلها:

«سورة مريم سورة مكية كالتي قبلها، ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى ضمن السورة قبلها قصصًا عجبًا، كقصة أهل الكهف، وقصة موسى والخضر وقصة ذي القرنين، وهذه السورة تضمنت قصصًا عجبًا من ولادة يحي بين شيخ فان وعجوز عاقر، وولادة عيسى من غير أب، فلما اجتمعا في هذا الشيء المستغرب ناسب ذكر هذه السورة بعد ذلك»(١).

مناسبة هذه الآية للسورة الكريمة:

«تتناسب الآية الكريمة مع محور السورة العام، وما تفيض به من الرحمة واليسر، فالآيات تبدأ بذكر قصة زكريا واستجابة دعائه، وتعجبه حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد، وطلبه من الله أية دالة على بداية العمل وصدق الوعد، فكانت الآية من رب العالمين هي: انقطاعه عن الكلام مع الناس بلسانه، مع كمال صحته وانطلاق لسانه في قراءة التوراة وذكر الله، فجاء قوله ﴿فخرج على قومه من المحراب فاوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾، دالة على وجوب الشكر لله وتسبيحه على نعمه (أن سبحوا بكرة وعشيا)، (فأوحى إليهم أن يشرعوا فيما اعتادوا من التسبيح أو أراد أن يسبحوا الله تسبيح شكر على أن وهب نبيهم نبيًا يرث علمه»(٢).

إنه فيض الكرم الإلهي يغدقه على عبده الذي دعاه في ضراعة وناجاه في خفية، وكشف له عما يخشى وتوجه إليه فيما يرجو، والذي دفعه إلى دعاء ربه خوفه الموالي من بعده، على تراث العقيدة وعلى تدبير المال والقيام على الأهل بما يرضي الله، وعلم الله من نيته فأغدق عليه وأرضاه.

(١) "البحر المحيط في التفسير": (٢٢٧/٧).
(٢) "التحوير والتنوير": (٧٥/١٦).

وكأنما أفاق زكريا من غمرة الرغبة وحراره الرجاء، على هذه الاستجابة القريبة للدعاء، فإذا هو يواجه الواقع، إنه رجل شيخ بلغ من الكبر عتيا، وهن عظمه واشتعل شيبه وامرأته عاقر لم تلد له في فتوته وصباه، فكيف يا ترى سيكون له غلام؟

إنه ليريد أن يطمئن ويعرف الوسيلة التي يرزقه الله بها هذا الغلام «قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرًا وقد بلغت من الكبر عتيا».

إنه يواجه الواقع ويواجه معه وعد الله، وإنه ليثق بالوعد، ولكنه يريد أن يعرف كيف يكون تحقيقه مع ذلك الواقع الذي يواجه ليطمئن قلبه، وهي حالة نفسية طبيعية، في مثل موقف زكريا النبي الصالح الإنسان الذي لا يملك أن يغفل الواقع، فيشتاق أن يعرف كيف يغيره الله!

هنا يأتيه الجواب عن سؤاله: أن هذا هين على الله سهل ويذكره بمثل قريب في نفسه: في خلقته هو وإيجاده بعد أن لم يكن، وهو مثل لكل حي (قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا)، وليس في الخلق هين وصعب على الله ووسيلة الخلق للصغير والكبير وللحقير والجليل واحدة كن فيكون، والله هو الذي جعل العاقر لا تلد، وجعل الشيخ الفاني لا ينسل وهو قادر على إصلاح العاقر وإزالة سبب العقر وتجديد قوة الإخصاب في الرجل، وهو أهون في اعتبار الناس من إنشاء الحياة ابتداء وإن كان كل شيء هينًا على القدرة إعادة وإنشاءً.

«ومع ذلك فإن لهفة زكريا على الطمأنينة تدفع به أن يطلب آية وعلامة على تحقق البشرى فعلاً، فأعطاه الله آية تناسب الجو النفسي الذي كان فيه الدعاء وكانت فيه الاستجابة، ويؤدى بها حق الشكر لله الذي وهبه على الكبر غلامًا .... وذلك أن ينقطع عن دنيا الناس ويحيا مع الله ثلاث ليال، ينطلق لسانه إذا سبح ربه، ويحتبسه إذا كلم الناس وهو سوي معافى جوارحه لم يصب لسانه عوج ولا آفة»[1].

(١) "في ظلال القرآن الكريم": (٤/ ٢٣٠٤).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

(فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا)

عطفت الآية الكريمة على ما قبلها بالفاء وذلك للدلالة على السرعة فبمجرد سماعه عليه السلام لتلك البشرى بالغلام، طلب من الله العلامة فكانت (ألا يكلم الناس ثلاث ليال سوياً) أي لا يكلم الناس مع أنه سليم من الخرس ولأنه ذلك هو المناسب لكونه أية من الله وليس المراد نهيه عن كلام الناس، إذ لا مناسبة في ذلك لكونه آية وقيل معناه «علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه وأنت سليم الجوارح وما بك خرس ولا بكم»[١].

فجاءت الفاء (فخرج) لتطوي الأحداث وتعصف بدقائق الزمان الذي تلاشى بين ما كان يدور في نفسه واستجابة دعائه، وكأنه يسارع في تنفيذ ما أقدم عليه من أمره لقومه بذكر الله وشكره وتسبيحه وحمدًا له على منه وكرمه عليه، فقد نقلتنا الفاء بسرعة من مرحلة سماعة للعلامات من الله سبحانه إلى مرحلة التنفيذ من الذكر والتسبيح.

قوله (المحراب) هو بيت أو محتجز يخصص للعبادة الخاصة[٢] وقيل هو صدر الهيكل وأشرف ما فيه[٣].

قوله (أوحى إليهم) أي ليس بالكلام لأن الكلام كان ممتنعًا عليه، فكان المراد غير الكلام وهو أن يعرفهم ذلك إما بالإشارة أو برمز مخصوص أو بكتابة لأن كل ذلك يفهم منه المراد فعلموا أنه قد كان ما بشر به فكما حصل السرور له حصل لهم فظهر لهم إكرام الله تعالى له بالإجابة[٤].

فقوله تعالى (فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم) أي خرج على قومه من

(١) "تفسير النسفي": (٣/٣٠)، تفسير البيضاوي: (٤٠٣).
(٢) "التحرير والتنوير": (١٦/٧٥).
(٣) "نظم الدرر": (٥٢٤).
(٤) "التفسير الكبير": (٢/٥١٥).

مكانه الذي ينفرد به للصلاة والعبادة وكانوا لا يدخلون للصلاة إلا بإذنه أو إنهم اجتمعوا ينتظرون خروجه للإذن فخرج إليهم وهو لا يتكلم فأوحى إليهم[١].

فقد جعل الله -تعالى- حبسه للكلام آية على الوقت الذي تحمل فيه زوجته فكأنه صرف أو أمر بالامتناع عن المحاورة مع الناس لحكمة ذكرها الإمام الزمخشري بقوله: «ليخلص المدة بذكر الله، لا يشغل لسانه بغيره توافرًا منه على قضاء حق تلك النعمة الجسمية وشكرها الذي طلب الآية من أجله، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آتيك أن تحبس لسانك إلا عن الشكر، وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقًا من السؤال ومنتزعًا منه (إلا رمزًا) إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرها»[٢].

وقد ضمن الفعل (خرج) معنى طلع لذلك عدى بـ (على) كقوله تعالى ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ﴾ [القصص:٧٩]

فخروجه عليه السلام من المحراب على قومه للصلاة يدل على أنه قد كانت محاورة خفية أو نداءُ خفي قد قاربا النهاية، إذ يحكي القرآن الكريم أن زكريا طلع على قومه ليصلي على عادته فكان في محراب في صلاة خاصة ونداء خفي يدعو ربه.

- (أن سبحوا بكرة وعشيا)

للعلماء في أن آراء منها:

أنها تفسيرية فهي تفسير لـ (أوحي) لأن أوحى فيها معنى القول دون حروفه[٣].

وقيل أنه يجوز أن تكون مصدرية وأن تكون بمعنى أي[٤].

وقوله (سبحوا) أي صلوا أو نزهوا ربكم، بكرة وعشيا طرفي النهار، ولعله كان

(١) "التفسير الكبير": (٥١٥/٢).
(٢) تفسير الكشاف": (٤٢٩/١).
(٣) "التحرير والتنوير": (٧٥/١٦).
(٤) إملاء ما من به الرحمن: العكبري (١١١/١).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

مأموراً بأن يسبح ويأمر قومه بأن يوافقوه(١).

وحذف مفعول (سبحوا) تقديره الهاء العائدة إلى الله أي سبحوه وذلك لفهمه من السياق، فالتسبيح والتقديس لا يكون إلا لله وحده ولا يوجد رب يعبد سواه، ولقد أمرهم بالتسبيح في قوله (سبحوا) لئلا يحسبوا أن زكريا لما لم يكلمهم قد نذر صومًا فيقتدوا به فيصمتوا، وكان الصمت من صنوف العبادة في الأمم السالفة، فأومأ إليهم أن يشرعوا فيما اعتادوه من التسبيح، أو أراد أن يسبحوا الله تسبيح شكر على أن وهب نبيهم ابنًا يرث علمه، ولعلهم كانوا قد علموا ترقبه استجابة دعوته، أو أنه أمرهم بذلك أمرًا مبهمًا يفسره عندما تزول حبسة لسانه(٢).

ولنا أن نتأمل ذلك الإعجاز الرائع في قوله ﴿سبحوا بكرة وعشيا﴾ من خلال المجاز المرسل في قوله (سبحوا) حيث يرى الجمهور أن المراد بها (صلوا) فإذا كان الأمر كذلك فإنه يكون من تسمية الشيء باسم جزئه، فالعلاقة هنا الجزئية، حيث إن المعنى الأصلي للفظ المذكور في الآية جزء من المعنى المراد(٣).

وقيل المراد بالتسبيح: التنزيه وهو قولهم: سبحان الله! وأوثر التعبير به

« لأن العادة جارية أن من رأى أعجب منه، أو رأى فيه بديع صنعه أو عجيب حكمه يقول: سبحان الله! سبحان الخالق! فلما رأى حصول الولد من شيخ وعاقر، عجيب من ذلك، فسبح وأمر بالتسبيح»(٤).

كما لا يخفى تلك الصورة البديعية الرائعة والتي انتهت بها الفاصلة القرآنية وهي الطباق بين قوله: (بكرة) و (عشيا) مما أكد المعنى وقرره في نفس السامعين والاستمرار بالتسبيح والشكر لله طرفي الليل والنهار.

---

(١) "تفسير البيضاوي": (٦/٤).
(٢) "التحرير والتنوير": (٧٥/١٦).
(٣) "شروح التلخيص": (٢٤/٤-٣٤)، "بغية الإيضاح": (٩٠/٣-٩٥).
(٤) "البحر المحيط": (١٧٦/٦).

ولتتأمل تلك الآية الكريمة وما بها من تأكيد وتقرير لوعد الله وما نتج عن هذا من التسبيح والشكر له سبحانه وذلك من خلال الأسلوب الخبري، فقد ورد في هذه الآية الكريمة جملتان خبريتان الفعل فيهما ماض والأولى تدل على هيئة زكريا عندما خرج إلى المصلى، عاجزًا عن الكلام ليس بعلة، وإنما بأمر الله، والمعنى أنه خرج على قومه ليصلي على عادته، فكان في محرابه في صلاة خاصة، ودعاء خفي ثم خرج لصلاة الجماعة إذ هو الحبر الأعظم(١).

والجملة الخبرية الثانية (فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) فيها إيحاء من زكريا لقومه كي يشرعوا فيما اعتادوا عليه من تسبيح وتقديس وشكر لله، وفي الخبر إشارة إلى تتابع أحداثهما التي تلت البشرى بتحقيق ما طلبه زكريا.

لم يكتف النظم الكريم بتأكيد وعده لسيدنا زكريا من خلال تلك الصورة التعبيرية الرائعة بل نجده يسلك مسلك آخر للفت انتباه السامعين وحثهم على الشكر والتسبيح لرب العالمين فقد التفت سبحانه من الغيبة في قوله (فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم) إلى الخطاب في قوله: (أن سبحوا بكرة وعشيا)، وفي هذا الالتفات دلالة قاطعة على إصرار سيدنا زكريا أن يشكر ربه على منه وفضله وأن يوحي لقومه أيضًا بتسبيحهم لله والشكر له.

وقد آثر التعبير بالخطاب بدلاً من الغيبة ويعتبر ذلك «إيقاظاً للسامع، وتطرية له من خطاب إلى خطاب آخر، لأن السامع ربما مل من أسلوب فينقله إلى أسلوب آخر، تنشيطًا له في الاستماع، واستمالة له في الإصغاء»(٢)، وفي ذلك طاقة تعبيرية ما كان لها لتتولد لولا هذا الأسلوب البديع.

هكذا وبعد الحوار الذي دار بين الله ﷻ وزكريا عليه السلام يخبرنا الله بوقوع وتحقيق حلم زكريا ولتأكيد سرعة تحقيق هذا الأمر وحصوله الحمل بسرعة فائقة تدل على قدرة

(١) "التحرير والتنوير": (١٦/٧٤).
(٢) "البلاغة الأسلوبية": عبد المطلب محمد (٢٠٧).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

الله، وتقضي على كل تفكير باستبعاد إرادته ﷻ أو إبطائها.

(فخرج على قومه من المحراب) نلحظ تكرار الميم المكسورة ثلاث مرات، وقد أحدث هذا التكرار وضوحًا سمعيًا وجمالاً صوتيًا، حيث جعل هذا التكرار الآية سهلة النطق عذبة التتابع تنتقل خلالها بسهولة ويسر- وكيف جعلت لنطق هذه الكلمات مجتمعة صوتًا منسجمًا وإيقاعًا محببًا.

كما نلحظ تكرار حرف الباء في قوله (سبحوا بكرة وعشيا) وهو صوت صامت مجهور يعطي الكلام قوة كما أنه أصبح أكثر إيقاعًا وبروزًا بمجاورته للأصوات المهموسة حيث جاء صوت الباء مجاورًا لأصوات (السين والحاء والكاف) المهموسة فظهر بصورة أوضح ودل على المعنى المراد.

كما أن الآية الكريمة ختمت بفاصلة رائعة كشأن سابقتها وهي الكلمات المنتهية بالياء المضعفة المتبوعة بصوت الفتحة الطويلة، مما أوجد نسقًا متناغمًا من الأصوات خلال القص.

ولعل امتداد النفس عند النطق بالألف، وما يصحبه من امتداد الصوت يتناسب مع أسلوب الدعوة إلى الله، كما أن صفتي الرخاوة والجهد اللتين يمتاز بهما صوت الألف الغالب على فواصل الآيات الكريمة يتناسب مع معاني المناجاة والدعاء التي ابتدأت بها قصة زكريا، هذه السورة الوحيدة التي ابتدأت بالحديث عن القصة القرآنية مباشرة بدون مقدمات.

وفي نهاية المطاف لهذا الدعاء من سيدنا زكريا والاستجابة من العلي القدير سبحانه نرى كل الألفاظ والمعاني والظلال والإيقاعات كلها قد تعاضدت وتشاركت في تأدية المعنى المراد ومصورة له.

خامساً : الآية الخامسة :

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

مناسبة سورة الأنعام لما قبلها:

قال بعضهم: مناسبة هذه السورة (الأنعام) لآخر المائدة: أنها افتتحت بالحمد، وتلك ختمت بفصل القضاء، وهما متلازمان كما قال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥]، وكما ذكر سبحانه في آخر المائدة ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة:١٢٠]، على سبيل الإجمال، افتتح هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله(١).

مناسبة الآية الكريمة لسورة الأنعام:

ساق الله ﷻ هذه السورة لبيان ما حرمه الكفار على أنفسهم، ثم جادلهم فيه، وأقام الدلالة على بطلانه، وعارضهم وناقضهم إلى غير ذلك.

فقد افتتحها سبحانه بذكر الخلق والملك، لأن الخالق والمالك هو الذي له التصرف في ملكه، ومخلوقاته، إباحة ومنعًا، وتحريمًا وتحليلاً، فيجب ألا يتعدى عليه بالتصرف في ملكه، وبالرغم من ذلك فهم جاحدون كافرون لأيات الله ثم ذكر سبحانه أنهم لا يؤمنون بالآيات، ولو أقسموا جهد إيمانهم بأنهم يؤمنون إذا جاءهم ما يطلبون من آيات، لأنهم قد سبق جحودهم تفكيرهم، لذا بين سبحانه أنهم لا يؤمنون إلا أن يشاء الله تعالى ولو نزل إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشر عليهم كل شيء قبلا وذلك لأنهم قوم يجهلون (ولكن أكثرهم يجهلون)، إن هؤلاء المعاندين قد نصبوا أنفسهم لعداوة النبي ﷺ ومقاومة دعوته، وهم وأشباههم من أعداء النبيين الذين قاوموا الدعوة، لذا قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

(١) "أسرار ترتيب القرآن": (٩٧).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

بين يدي الآية الكريمة :

بدأ النظم الكريم الآية باعتراض (وكذلك جعلنا لكل نبي ....) الغرض منه تسرية وتسلية لرسول الله ﷺ، والواو واو اعتراض، لأن الجملة بمنزلة التلطف والتسلية للرسول ﷺ بعد ما ذكر ما يحزنه من أحوال كفار قومه، وتصلبهم في نبذ دعوته، فأنبأه الله: بأن هؤلاء أعداؤه، وأن عداوة أمثالهم سنة من سنن الله تعالى، في ابتلاء أنبيائه كلهم، فما منهم أحد إلا وكان له أعداء، فلم تكن عداوة هؤلاء للنبي ﷺ بدعًا من شأن الرسل، فمعنى الكلام: ألست نبيًا وقد جعلنا لكل نبي عدوًا.... [١].

فكلما كانت المحن كانت البلايا أوفى، والمطالبات أقوى، فلما كانت رتب الأنبياء عليهم السلام أشرف كانت العداوة معهم أشد[٢].

وقد عبر النظم الكريم عن هذا المعنى من خلال لوحة تشبيهية رائعة، حيث شبه عداوة شياطين الإنس والجن لمحمد ﷺ بعداوة الشياطين للأنبياء السابقين عليهم السلام، وما ذلك إلا لتثبيت قول الرسول ﷺ «فكما ابتلينا من قبلك من الأنبياء والرسل، بأن جعلنا لهم أعداء من قومهم، يؤذونهم بالجدال والخصومات، ليعظم ثوابهم، فهذا الذي امتحنتك به، لم تخصص به بينهم وحدك، بل قد عممتهم بذلك معك، لأبتليهم واختبرهم، وأما شياطين الإنس والجن، فإنهم المتمردون من الصنفين»[٣].

وعبر سبحانه بلفظ (جعل) دون غيره، وذلك لأن سنة الله تعالى في الخلق مضت بأن يكون الشرير المتمرد العاتي عن الحق والمعروف، أي الذي لا ينقاد كبرًا وعنادًا وجمودًا على ما تعود، يكون عدوًا للدعاة إليها من الأنبياء عليهم السلام ومن ورثتهم وناشري هدايتهم.

والإشارة في قوله: (كذلك) إلى الجعل، والكاف في محل نصب على أنه مفعول

---

(١) "التحرير والتنوير": (٨/٨)

(٢) "لطائف الإشارات": (١/٤٩٥).

(٣) "تفسير الطبري": (٨/١-٤)، "الواحدي": (١/٣٧١)، "التسهيل لعلوم التنزيل": (٢/١٩).

مطلق للفعل (جعلنا) وقوله (عـدوًا) مفعـول جعلنـا الأول، وقـوله (لـكل نبي)المجـرور مفعول ثان ل (جعلنا)، وقدم قوله (لـكل نـبي) المفعـول الثـاني لجعـل على المفعـول الأول (عدوًا) وذلك للاهتمام به، لأنه الغرض المقصود من السياق، إذ المقصود الإعلام بأن هذه سنة الله في أنبيائه كلهم، فيحصـل بـذلك التـأسي والقـدوة والتسـلية، ولأن في تقديمـه تنبيهًا على أنه خبر، وأنه ليس متعلقًا بقوله (عدوًا) كيلا يحال السامع أن قوله: (شياطين الإنس) مفعول لأنه يحول الكلام إلى قصد الإخبار عن أحـوال الشـياطين أو عـن تعيـين العدو للأنبياء من هو، وهذا ينافي بلاغة الكلام.

كما أن شياطين بدل من (عدوًا) ، وإنمـا صـيغ التركيـب هكـذا: لأن المقصـود الأول الإخبار بأن المشركين أعداء للرسول ﷺ، فمن أعرب شياطين مفعولاً لجعل، ولكل نبي ظرفًا لغوًا متعلقًا بـ (عدوًا) فقد أفسد المعنى[١].

فضلاً عن أن مجيء الجار والمجرور (لكل نبي) يفيد العمـوم والشـمول يخلـع على الكلام معاني التشريف والتعظـيم وقـوة السـلطان، فـهي تـلاوة شريفـة ذات أسر وأخـذ بمجامع القلوب والألباب.

كما أن تقديم الجار والمجرور يكسب المعنى ثراء وجمـالاً، فـإن تلـك الزحزحـة تضفي حركة على الأسلوب، فترمي بكثير من اللطائف والبدائع ولم لا؟ والتقـديم، «بـاب كثير الفوائد، جم المحاسن واسع التصرف، بعيـد الغايـة، لا يـزال يفترلـك عـن بديعـة ويفضي بك إلى لطيفة»[٢].

والعرب لهم سنة متبعة في التقديم وضحها سيبويه فقـال: وكـأنهم -أي العـرب- إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى وإن كانا جميعًا يهميانهم ويعنياهم[٣].

---

(١) "التحرير والتنوير". ٩/٨

(٢) "دلائل الإعجاز: (١٠٦).

(٣) "الكتـاب/ سـيبوية": (٣٤/١)، ت/ عبـد السـلام هـارون مكتبـة الخـانجي، ط٣، ١٤٢٨هـ ، ١٩٨٨م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

وليس فقط الغرض من التقديم مجرد الاهتمام والعناية بالمقدم كما قال بذلك الإمام عبد القاهر، «وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال: إنه قدم للعناية، ولأن ذكره أهم، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ولم كان أهم»(١).

وكلام الإمام عبد القاهر يؤيده ذلك السياق الذي ورد فيه الجار والمجرور المقدم (لكل نبي) وتكاد تجتمع كلمة المفسرين على أنه قدم للإعلام بأن هذه سنة الله مع أنبيائه جميعًا، ولأن في تقديمه تشويقًا وتنبيهًا على كونه خبر، «فتقديم كلمة على أخرى لا يجري هكذا في الكلام البليغ، فضلاً عن القرآن الكريم، بل هو يجري على نسق دقيق من مراقبة المعاني، ومتابعة الأحوال وهو متشعب النواحي، متعدد الأصول، فهم يقدمون من المتعلقات ما هو أوثق بغرض الكلام وسياقه»(٢).

وقوله (عدوًا) وصف للمخالف والمقصود بهم كفار قريش المعارضين لرسول الله، لذا أخبر سبحانه عن الأقوام لفظ عدوًا لأنهم مخالفون ويسعون للإيذاء بكل وسيلة.

«وليس كل مخالف مبطل عدوًا يسعى جهده لإيذاء مخالفة الحق وإنما يتصدى لذلك العتاة المستلذون المحبون للشهرة، والزعامة بالباطل، والمترفون الذين يخافون على نعيمهم، فلم يكن كل كافر بالأنبياء عليهم السلام ناصبًا نفسه لعداوتهم وإيذائهم وصد الناس عنهم، بل أولئك هم العتاة المتمردون الذين ضربت أنفسهم بالعدوان والبغي، وأولئك هم الشياطين المفسدون في الأرض، سواء كانوا من جنس الإنس الظاهر أو من جنس الجن الخفي»(٣).

(شياطين الإنس والجن) اختلف العلماء في تفسير معنى شيطان الإنس والجن على قولين:

الأول: أن المعنى مردة الإنس والجن، والشيطان كل عات متمرد من الإنس والجن،

---

(١) "دلائل الإعجاز": (١١٩).
(٢) "خصائص التراكيب": د/محمد أبو موسى، (٣٦٧).
(٣) "تفسير المنار": (٨/٥-٦)، "المراغي": (٣/١٨٣)، "السعدي": (١/٢٦٩).

وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء ومجاهد والحسن وقتادة، وهؤلاء قالوا إن من الجن إذ أعياه المؤمن ذهب إلى متمرد من الإنس وهو شيطان الإنس فأغراه بالمؤمن ليفتنه، والدليل عليه ما روى عن النبي ﷺ أنه قال لأبي ذر: هل تعوذت بالله من شر شياطين الجن والإنس؟، قال قلت: وهل للإنس من شياطين؟، قال: نعم هم شر من شياطين الجن.

الثاني: أن الجميع من ولد إبليس إلا أنه جعل ولده قسمين فأرسل أحد القسمين إلى وسوسة الإنس، والقسم الثاني إلى وسوسة الجن فالفريقان شياطين الإنس والجن ومن الناس من قال القول الأول أولى، لأن المقصود من الآية الشكاية من سفاهة الكفار الذين هم الأعداء وهم الشياطين.

ومنهم من يقول القول الثاني أولى، لأن لفظ الآية يقتضي إضافة الشياطين إلى الإنس والجن، والإضافة تقتضي المغايرة وعلى هذا التقدير فالشياطين نوع مغاير للجن وهم أولاد إبليس(١).

وأيًا كان المعنى والتقدير فإنه سبحانه وصفه بقوله (شياطين) سواء أكانوا إنساً أو جناً وذلك لكونهم بعدوا عن الرشاد والسداد، «ولما كان كل متمرد كالباطل في نفسه بسبب كونه مبطلاً لوجوه مصالح نفسه سمي شيطانًا»(٢).

كما يطلق الشيطان على المضلل الذي يفعل الخبائث من الناس على وجه المجاز، وقوله (شياطين الإنس) استعارة للناس الذين يفعلون فعل الشياطين من مكر وخديعة، يأمرون بالسوء والفحشاء، ويزينون كل قبيح ويسمونه بغير اسمه وهؤلاء لا يدفعون النفس الأمارة بالسوء وأولئك يستهينون بهم.

وإضافة الشياطين إلى (الإنس) من باب إضافة الأخص من وجه إلى الأعم من وجه، وهي إضافة مجازية على تقدير (من) التبعيضية مجازًا بناء على الاستعارة التي تقتضي كون هؤلاء الإنس شياطين فهم شياطين، وهم بعض الإنس، أي إن الإنس لهم أفراد

(١) "التفسير الكبير": (٧٠/١).
(٢) "لطائف الإشارات": (٤٩٥/١).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

متعارفة، وأفراد غير متعارفة يطلق عليها اسم الشياطين، أما شياطين الجن فالإضافة هنا حقيقة لأن الجن منهم شياطين ومنهم غير شياطين ومنهم صالحون، وعداوة شياطين الجن للأشياء ظاهرة، وما جاءت الأنبياء إلا للتحذير من فعل الشيطان(١).

ووصف الإنس بالشياطين لأن الأمم اعتادوا أن يحذرهم المصلحون من وسوسة الشياطين، وربما لا يخطر بالبال أن من الوسواس ما هو شر من وساوس الشياطين وهو وسوسة أهل نوعهم، وهو اشد خطرًا وهم بالتعوذ منهم أجدر، لأنهم أقرب وهو عليهم أخطر وأنهم في وسائل الضر أدخل وأقدر ولا يستقيم أن يكون من بيانًا للناس إذ لا يطلق اسم الناس على ما يشمل الجن ومن زعم ذلك فقد أبعد(٢).

وقد قدم النظم الكريم الإنس على الجن في قوله: (شياطين الإنس والجن) للعلماء في ذلك آراء منها قول أبن الصائغ:

أنه قدم الإنس على الجن لشرف الإنس على الجن، وتابعه في ذلك السيوطي ومنهم من يرى غير ذلك.

والقول الفصل في ذلك:

أن يدار الأمر في التقديم والتأخير على غير هذا الوجه الذي ذهب إليه ابن الصائغ وإلا فأي تشريف يعود على الإنسان.

إذن: لماذا قدم الإنس على الجن وما الوجه اللائق لتفسير هذا لتقديم السر في التقديم ليس للتشريف قطعًا -كما يرى ابن الصائغ- لأن المقام ليس مقام تشريف وهذا ظاهر، وإنما سر التقديم هنا: «لأن عداوة الإنس للرسل ظاهر أمرها، وعنادهم لهم لا يحتاج إلى دليل، تحدث عن ذلك القرآن مبينًا الصراع بين قوى الهداية والخير متمثلة في الرسل، فبنو إسرائيل -مثلاً- وهم من الإنس تمردوا على الرسل وقتلوهم، ولم تقتل

(١) "التحرير والتنوير". ٨/ ١١
(٢) "التحرير والتنوير". ١١/٨

الجن رسولاً ولا نبيًا، هذا الظهور في عداوة الإنس للرسل، جعلهم أصلاً في هذا المقام جديرين بالتقديم فيه، أما عداوة الجن للرسل فهي مساع وحيل متخفية، يدركها العقل ولا تدركها الحواس فهو -بهذا الاعتبار- تأتي في المرحلة الثانية بعد عداوة الإنس للرسل والتمرد عليهم وقتلهم، فالتقديم -إذن- ليس للتشريف بل لأن المقدم أكبر شأنًا من حيث اتصاله بالحقيقة التي سبق الكلام من أجلها»[١].

ولنتأمل قوله تعالى: (يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا) «أي يلقي الملقى منهم القول الذي زينة وحسنه بالباطل إلى صاحبه، ليغتر به من سمعه فيضل عن سبيل الله»[٢]، «فهم يزيفون لهم الأعمال القبيحة غرورًا، بالوسوسة والإغراء على المعاصي»[٣].

وقوله (يوحي) الوحي هنا هو الكلام الخفي كالوسوسة أي هو عبارة عما يوسوس به شياطين الجن إلى شياطين الإنس، وأريد به ما يشمل إلقاء الوسوسة في النفس من حديث يدور في صورة الكلام.

وسمى وحيًا لأنه إنما يكون خفية وجعل تمويههم زخرفًا لتزينهم إياه، ومنه سمي الذهب زخرفًا، وكل شيء حسن مموه فهو زخرف، والمزخرف المزين وزخارف الماء طرائقه[٤].

واختيار النظم الكريم للفظة (الزخرف) دون غيرها وذلك لأن الزخرف هو الذي يكون باطنه باطلاً وظاهرة مزينًا ظاهرًا، يقال فلان يزخرف كلامه إذا زينه بالباطل والكذب وكل شيء حسن مموه فهو زخرف[٥].

---

(١) "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية": (١١٥-١١٦).
(٢) "تفسير الطبيري": (٣١٨).
(٣) "القرطبي": (٦٧/٧).
(٤) "تفسير القرطبي": (٦٧/٧).
(٥) "التفسير الكبير": (١٢٠/٣).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

فالشياطين سواء أكانوا من الإنس أو الجن يوحون لبعضهم البعض بزخرف القول، وعبر سبحانه بالوحي، وذلك لأنه متضمن معنى الخفاء فغلبة الحق لا تجعلهم قادرين على أن يتجاهروا لذلك ويتأمرون مع بعضهم البعض، لكن الناس المحقين في قضية يتحركون في علانية ولا يستخفون من الناس.

وجعله سبحانه (زخرفا) وذلك لأنهم يدخلون على المسائل بالتزيين فيزيفون للناس الشهوة، ولذلك سماها ربنا وسوسة، فالمعاني حين يؤخذ لها ألفاظ تؤخذ من الأشياء الحسية، والوسوسة هي صوت الحلى، وقد اختار الله لما يفعله الشياطين من الإنس والجن للفظ الموحى بالمعنى المراد لأن وسوسة الحلى تغري بالنفاسة وعظيم القيمة والوسوسة طريقها هو الخفاء(١).

لذلك سمى القول الموحى إليهم بالزخرف وذلك لأن شياطينهم يغروهم ويخدعوهم ليفعلوا ويقترفوا المعصية، وإن لم يأتوا للمعصية بكلمات تزخرفها وتزينها، فلن يستطيعوا أن يدخلوا بها على الناس، لذلك يعرضون ويبدون محاسن المعصية في ظاهر الأمر.

هذا: وإضافة الزخرف إلى القول من إضافة الصفة إلى الموصوف أي القول المزخرف، وهو من الوصف بالجامد الذي في معنى المشتق إذا كان بمعنى الذين، ووصف القول بالزخرف لأنه يحتاج إلى التحسين والزخرفة وذلك تلوين كلام غير مشتمل على ما يكسبه القبول في حد ذاته، وذلك أنه كان يفضي إلى حيز يحتاج قائله إلى تزيينه وتحسينه لإخفاء ما به من الضر خشية أن ينفر عنه من يوسوس له، فذلك التزيين ترويج يستهوون به النفوس، كما تموه للصبيان اللعب بالألوان والتذهيب.

وقوله (غرورا) مفعول لأجله أي يوحون زخرف القول ليعزوهم، ويجوز أن يكون في موضع الحال والغرور هو الباطل.

---

(١) "تفسير الشعراوي": (٣٨٧٩/٧).

وروى عن ابن عباس بإسناد ضعيف أنه قال في قول الله ﷻ: (يوحي بعضهم إلى بعض) قال مع كل جني شيطان، ومع كل إنس شيطان فيلقي أحدهما الآخر، فيقول: إني قد ضللت صاحبي بكذا فأضل صاحبك بمثله، ويقول الآخر مثل ذلك، فهذا وحي بعضهم إلى بعض[١].

ثم بين سبحانه لرسوله الكريم أن كل ذلك بقدره وقضائه، وإرادته ومشيئته، أن يكون لكل نبي عدواً من هؤلاء، ولو أراد الله ما فعلوه، ولكنهم فعلوه ليكون التنازع بين الخير والشر، ولأن الله تعالى مكن لإبليس الذي قال (لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) ولو أراد الله ما تمكن، ولو شاء الله تعالى ما خلق، وإذا كان ذلك أمرًا ثابتًا بالنسبة للنبيين أجمعين، فتقبله وأعرض عنهم، ولا تأسى على القوم الفاسقين[٢]، فدع أذاهم وتوكل على الله في عداوتهم، فإن الله كافيك وناصرك عليهم، ولذلك قال تعالى: ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾ جاء في هذه الجملة بجملتين شرطيتين وفعل الشرط (شاء) ماضيًا لفظًا لا معنى وذلك لأن الشرط والجزاء لا يتعلقان إلا بالمستقبل وعلى ذلك يكون فيه تقديران:

١- أحدهما: أن الفعل ذو تغير في اللفظ فغير لفظ المضارع إلى الماضي تنزيلاً له منزلة المحقق.

٢- الثاني: أنه ذو تغير في المعنى، وأن حرف الشرط لما دخل عليه قلب معناه إلى الاستقبال، وبقى لفظه على حاله، والتقدير الأول أفقه في العربية لموافقته تصرف العرب في إقامتها الماضي مقام المستقبل وتنزيلها المنتظر منزلة الواقع المتيقن[٣].

وقد حذف مفعول فعل المشيئة وذلك للبيان بعد الإبهام ولأنه لم يتعلق بشيء

(١) "تفسير القرطبي": (٦٧/٧)
(٢) "زهرة التفاسير": (٢٦٣٤/٥).
(٣) "بدائع الفوائد": لابن القيم (٥١/١)، وما بعده ت أ/ سيد عمران وآخرون، دار الحديث القاهرة ط ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢ م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

غريب فحذف المفعول ودل عليه جواب الشرط، والتقدير والله أعلم (ولو شاء ربك منعهم الفعل ما فعلوه)، أي لو شاء الله ألا يكون للأنبياء أعداء لفعل ذلك -القول- لأن له طلاقة القدرة، ولكن ذلك سيكون بالقهر والله لا يريد قهرًا للعقلاء، وإنما يريد أن يذهبوا بمحض اختيارهم أي وهم قادرون على ألا يذهبوا[١].

فـ (لو) حرف شرط يفيد امتناع لامتناع، (شاء) فعل الشرط والمفعول محذوف تقديره (منعهم أي لو شاء منعهم) (ما فعلوه) جواب الشرط.

ثم يأتي الشرط الثاني: (فذرهم وما يفترون)[٢] الفاء فصيحة أفصحت عن شرط مقدر أي إذا بدا العداء وصدر الإيحاء من شياطين الإنس والجن بعضهم لبعض بمشيئة الله فذرهم وما يفترون[٣].

فـ (إذا) اسم شرط ظرف للزمن المستقبل متضمن معنى الشرط جملة فعل الشرط (بدا العداء) جملة الشرط (فذرهم) رابطة لجواب شرط مقدر، وقد تم الحذف لفهمه من السياق، ولا يخفى ما لأسلوب الشرط من أثر بين على تأكيد الكلام وتثبيته في نفس المتلقي، فلو وقع الشرط الأول (شاء ربك) أي ولو شاء ربك منعهم من معاداتك ما فعلوه، أي ما فعلوا ما ذكر من عداوتك وإيحاء بعضهم إلى بعض بزخرفات الأقاويل الباطلة، ولكن هذا الجواب لم يقع، لعدم وقوع الشرط الأول، ثم يأتي الشرط الثاني المقدر، إذا بدا العداء وصدر الإيحاء من شياطين الإنس والجن بعضهم لبعض بمشيئة الله ﷻ عندها يقع جواب الشرط الثاني المقدر (فذرهم وما يفترون) أي فاتركهم وما يفترونه من أنواع المكايد، فإن لهم في ذلك عقابًا شديدًا، وهذا الجواب فيه معنى التهديد والوعيد[٤].

---

(١) "تفسير الشعراوي": (٣٨٧٩/٧).
(٢) "إعراب القرآن": (٣٢٨/١).
(٣) "تفسير أبي السعود": (١٧٦/٣).
(٤) "إعراب القرآن": (٣٢٩/١)، "الجدول في إعراب القرآن": (٢٦٠/٨).

والواو في قوله (فذرهم وما يفترون) واو المعية، (ما) اسم موصول أي أعرض عنهم واتركهم هم وما يفترونه هذه هي النتيجة بالنسبة للنبي ﷺ وهي أن يتركهم في غيهم يتحيرون، أما النتيجة بالنسبة لهم ولأمثالهم فقد ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام:١١٣][1].

ولا يخفى اختيار النظم الكريم للفظه (ذر) فعل أمر بمعنى التهديد ولم يقل دع ولا اترك وذلك لأن الفعل (ذر) خرج على الأكثر، فهو أشمل من الفعل (دع) و (اترك)، وكثر استعماله في الذكر الحكيم دون غيره في مواضع التهديد والوعيد، لما فيه من الخفة في نطقه، وانزلاق اللسان بحروفه المناسبة للانتقام الهائل والتهديد والحسم السريع.

كما أن التعبير بالفعل المضارع (يفترون) وذلك للدلالة على التجدد الاستمراري في الافتراء والوسوسة، كما أن فيه صورة حية شاخصة لشياطين الإنس والجن وهم يوسوسون للبشر بالشر، فالقرآن يصور بالكلمة المعبرة مشهدًا حيًا متحركًا شاخصًا، فلا يخبرنا عن الحدث وإنما يجعلنا نرى الحدث ونشاهده.

(١) "زهرة التفاسير": (٥/٣٦٣٥).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

سادساً : الآية السادسة :

﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١]

مناسبة الآية الكريمة للسورة:

أنه سبحانه لما ذكر في بداية السورة الكريمة بأنه خلق النوع الإنساني، وقضى له أجلاً مسمى، وجعل له أجلاً آخر للبعث، وأنه منشئ القرون قرنًا بعد قرنٍ، ثم قال: ﴿قل لمن ما في السموات والأرض قل لله﴾ [الأنعام:١٢]، فأثبت له ملك جميع المنظورات ثم قال: ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ [الأنعام:١٣] فأثبت له ملك جميع المظروفات في الزمان، ثم ذكر أنه خلق سائر الحيوان من الدواب والطير...

ولما كان المقصود في هذه السورة بيان الخلق والملك، أكثر فيها من ذكر الرب الذي هو بمعنى المالك والخالق والمنشئ، والرب سبحانه هو من يحل ويحرم، ثم ذكر سبحانه أن هناك أناساً حرموا أشياء مما رزقهم الله افتراء عليه، وكان القصد بذلك تحذير المؤمنين أن يحرموا شيئًا مما أحل الله، فيشابهوا بذلك الكفار في صنيعهم، ثم جادلهم فيه وأقام الدلائل على بطلانه، وعارضهم وناقضهم(١).

فقد أحل سبحانه أكل ما ذبح على اسم الله، ثم ذكر بعده تحريم ما لم يذكر عليه اسم الله، ويدخل فيه الميتة، ويدخل فيه ما ذبح على ذكر الأصنام، والمقصود منه إبطال ما ذكره المشركون(٢)، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١].

بين يدي الآية الكريمة:

(ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون)

---

(١) "أسرار ترتيب القرآن": (٨١-٨٣).
(٢) "التفسير الكبير": (١٦٨/١٣).

بدأ النظم الكريم الآية بالعطف بـ (الواو) فقد عطف جملة (ولا تـأكلوا ممـا لـم يذكر اسم الله ....) على جملة (فكلوا مما ذكـر اسـم الله ..) وذلـك لوجـود المناسـبة التامـة بينهما، وذلك للتوسط بين الكمالين.

فقد نهى سبحانه عن اتباع المشركين خاصة، والجماعات من غير نظر عامة، وقد أشار إلى الضلال الذي كانوا يتبعونه، فكانوا يأكلون ما ذبح باسم أصنامهم، ومـا ذبـح على نصابها، وكانوا يحرمون على أنفسهم بعض الأنعام، ويزعمون أن تحريم ذلك من الله، لذلك أباح الله للمؤمنين أن يأكلوا مما ذكر اسم الله عليه، وألا يُحرموا على أنفسهم إلا ما حـرم الله[١].

فالنهي مسوق على عدم أكل ما لم يسم عليه اسم الله، والتشديد على ذلك، وعبر عن ذلك باعتماد الفعل المضارع (تأكلوا) لمـا يـدل عليـه الفعـل مـن تجـدد واسـتمرار مناسبين لذلك الحدث وهو عدم أكل ما لم يـذكر عليـه اسـم الله، واسـتمراره في حركـة الزمن باستمرار انحراف الإنسان وجهله بالشريعة.

وهذا متحقق بمطلق الزمن أي لا يقف عند حدود المخاطب، بل يشـمل كل مـن اتسم بسمة الكفر، وابتعد عن الله سبحانه، أي أنه مقصد مستمر ينطبق على من أحـل ما حرمه الله، وقد أفاد النهي هنا التحذير من أكل مـا لـم يـذكر اسـم الله عليـه قصـدًا وتجنبًا لذكره عليه، ولا يكون إلا لقصد أن لا يكون الذبح لله، وهو يساوي كونه لغـير الله، إذ لا واسطة عندهم في الزكاة بين أن يذكر اسم الله أو يذكروا اسم غـير الله، بـدليل قوله: (وإنه لفسق)[٢].

فقد[٣] صار هذا النهي مخصوصًا بما إذا كان هذا الأمر فسقًا، ثم طلبنـا في كتـاب الله تعالى متى يصير فسقًا؟

---

(١) "زهرة التفاسير": (٥/٢٦٤٤)
(٢) "التحرير والتنوير": (٧/١٦٠).
(٣) "التفسير الكبير": (١٣/١٣١).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

فكان مفسرًا بقوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:١٤٥]، فصار الفسق في هذه الآية مفسرًا بما أهل لغير الله، وإذا كان كذلك كان قوله: (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم ..) وإنه لفسق مخصوصاً أهل به لغير الله.

والواو في قوله (وإنه لفسق) قيل فيها إنها:

حالية والضمير يعود على الأكل من الذي لم يذكر اسم الله عليه، أي: وإن الأكل من ذلك الحيوان المذبوح الذي لم يذكر اسم الله عليه لخروج عن طاعة الله -تعالى- وابتعاد عن الفعل الحسن إلى الفعل القبيح، وفي ذلك ما فيه من تنفيرهم من أكل ما لم يذكر اسم الله عليه.

وقيل إنها عاطفة، فقد عطفت جملة (وإنه لفسق) على جملة (ولا تأكلوا) عطف الخبر على الإنشاء، على رأي المحققين في جوازه، وهو الحق، لاسيما إذا كان العطف بالواو، وقد أجاز عطف الخبر على الإنشاء بالواو بعض من منعه بغير الواو، وهو قول أبي علي الفارسي، واحتج بهذه الآية كما في (مغني اللبيب) وقد جعلها الرازي وجماعة حالاً(مما لم يذكر اسم الله عليه) بناء على منع عطف الخبر على الإنشاء(١).

والقول الراجح هو كونها عاطفة فقد عطفت الجملة التعليلية (وإنه لفسق) على جملة (ولا تأكلوا) فقد اقترن هذا النهي بهذه الجملة التعليلية التي تؤكد مضمون النهي وتحث على اجتناب المنهي عنه وقد تعاضدت الجملتان على تأدية المعنى المراد من حيث تصدر الجملة بالنهي مما يدل على تشويق السامع لمعرفة ما سيأتي بعدها، وتأتي الجملة (وإنه لفسق) المؤكدة بإن واللام واسمية الجملة لتؤكد هذا المعنى وتقرره.

أما من قال بأنها حالية فقوله مردود لأنه منتقض بقوله: (وإن الشياطين ليوحون) فإنها عاطفة لا محالة، فلو كانت حالية لامتنع عطف هذه عليها، وإن عطفت على

(١) "التحرير والتنوير": (١٦٠).

الطلبية ورد عليها الاعتراض نفسه.

والضمير في قوله: (وإنه لفسق) يعود على (ما) في قوله: (مما لم يذكر اسم الله عليه) والإخبار عنه بالمصدر وهو (لفسق) مبالغة في وصف الفعل، وهو ذكر اسم غير الله، بالفسق حتى تجاوز الفسق صفة الفعل أن صار صفة المفعول، فهو من المصدر المراد به اسم المفعول: كالخلق بمعنى المخلوق، وهذا نظير جعله فسقًا في قوله بعد: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤٥]، والتأكيد بإن لزيادة التقرير، وجعل في الكشاف الضمير عائدًا إلى الأكل المأخوذ من (ولا تأكلوا) أي وإن أكله لفسق.

وأصل الفسق الخروج، ويستعمل في الترك لأمر الله والعصيان والخروج عن الحق، والمراد بالفسق هنا المعصية، وقيل الكفر والشرك، وسمي الفسق شركًا لأن تسمية غير الله تعالى على المأكول يعد خروجًا عن الدين، لأن الأصل في التوحيد ذكر اسم الله، وذكر اسم غيره سبحانه كأنه جعل ما لله لغيره، وهذا هو الشرك بعينه.

ثم يأتي النظم ببيان ما يفعله الشياطين ليوقعون أتباعهم في شباكهم بقوله: (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) وهي معطوفة على قوله: (وإنه لفسق) لوجود المناسبة التامة بينهما وهو ما يسميه البلاغيون بالتوسط بين الكمالين ، أي احذروا جدل أولياء الشياطين في ذلك، والمراد بالشياطين هنا، قيل:

١- المراد من الشياطين ههنا إبليس وجنوده، وسوسوا إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوا محمد ﷺ في أكل الميتة.

٢- قيل المراد مردة المجوس، ليوحون إلى أوليائهم من مشركي قريش، وذلك لأنه لما نزل تحريم الميتة سمعه المجوس من أهل فارس، فكتبوا إلى قريش وكانت بينهم مكاتبة، أن محمدًا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله، ثم يزعمون أن ما يذبحونه حلال وما يذبحه الله حرام، فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء، فأنزل الله تعالى

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

هذه الآية[١].

والمراد بالإيحاء: الإلقاء إلى الغير، والمراد هنا ما يلقيه الشياطين من الشبه إلى أوليائهم، إما بطريق الكتابة إن قلنا إن الشياطين من فارس، أو بطريق الوسوسة إن قلنا: إن الشياطين إبليس وجنوده.

والمراد بأولياء الشياطين: المشركون وهم المشار إليهم بقوله: ﴿**يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ**﴾ [الأنعام:١١٢].

ذم ذكر سبحانه علة هذا الإيحاء الذي يقوم به الشياطين (ليجادلوكم) أي ليحببوا لكم الكفر وشعائره وإبطال أحكام الإسلام مثل، قولهم: كيف نأكل ما نقتل بأيدينا، ولا نأكل ما قتله الله؟[٢].

ولنتأمل قوله: (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) حيث استخدم سبحانه صيغة الجمع (الشياطين) وهو لون من التصرف في الصيغ وفن من فنون الخروج عن ظاهر الأحوال، يفجأ القارئ بما يفتح باصرته على لون من سامق البيان، ويفتح بصيرته على أقباس من أسرار الإعجاز، ويلقي في ذوقه شوبًا من بلاغة النظم الحكيم[٣].

فالذكر الحكيم يعدل عن الواحد ويسلكه في الجماعة مبالغة في تأكيد إثبات الصفة لموصوفها، ويكثر ذلك في القرآن الكريم في مقام التهديد والوعيد[٤]، فقوله: (وإن الشياطين ليوحون) بدلاً من (الشيطان) يستحضر ذهن السامع تلك الصورة التي عليها الشياطين وهم يقذفون بوساوسهم في قلوب المؤمنين حتى يخرجوهم عن منهج الله القويم بغية أن يملأ قلبه رعبًا يتصور نفسه واحدًا منهم يعاني ما يعانونه وهذا أدعى لزجر هذا الأمر.

يمضي بنا النظم الكريم من خلال ذلك السياق الخطابي الذي يعمد من خلاله إلى

---

(١) "التفسير الكبير": (١٣/١٧٠).

(٢) "التحرير والتنوير: (٧/٣٣).

(٣) "الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ": د/ محمد الأمين الخضري ، ص٤، ط الحسين الإسلامية، طبعة أولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

(٤) السابق نفسه: ١١٤.

تأسيس ثقافة دينية تلامس روح الإنسان وتطالبه بالابتعاد عما له أثار دنيوية وأخروية تنعكس على الفرد والمجتمع، فالنهي فيه توجيه شديد للذين آمنوا من أجل تجنب هذا النهي، وبناء مجتمع سليم يلتزم بحدود التشريع، ويتجنب عاقبة هذا العمل، إذ لم يكتف القرآن بالنهي عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، بل لوح بالعذاب الأخروي لمن فعل ذلك واستمع للشياطين ولوحيهم بقوله: (وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) ويوحي التعبير بالشياطين، إن الاستماع إليهم وتنفيذ ما يوحون به لا يتفق أساسًا مع روح الإيمان ولهذا ينتظر من يفعل ذلك ما ينتظر الشياطين من الكفر والشرك.

وقوله: (وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) حذف متعلق (أطعتموهم) لدلالة المقام عليه، أي: إن أطعتموهم فيما يجادلونكم فيه، وهو الطعن في الإسلام، والشك في صحة أحكامه[١].

وهنا قسم مقدر في القول وقوله تعالى: (إنكم لمشركون) وهو جواب القسم بدليل وجود اللام، وبدليل أنه لم توجد (الفاء) إذ لو كانت جوابًا للشرط لجاء الفاء، وهذا تأكيد لإشراك المؤمنين إن سايروهم في الجدل في أمور ليست موضع جدل، فالجدل يولد الريب، كما يدل على «أن من توقى ذلك أتحدت لله خواطره، وانقطعت عنه خواطر الشياطين، وأصل كل قوة متابعة الشهوات ومن تعود متابعتها فليودع صفوة القلب[٢].

وتأكيد الخبر بإن لتحقيق التحاقهم بالمشركين، إذا أطاعوا الشياطين وإن لم يدعوا لله شركاء، لأن تخطئة أحكام الإسلام تساوى الشرك، فلذلك احتيج إلى التأكيد، أو أراد إنكم لصائرون إلى الشرك، فإن الشياطين تستدرجكم بالمجادلة حتى يبلغوا بكم إلى الشرك، فيكون اسم فاعل مراداً به الاستقبال.

وليس المعنى: إن أطعتموهم في الإشراك بالله فأشركتم بالله إنكم لمشركون، لأنه لو كان كذلك لم يكن لتأكيد الخبر سبب، بل ولا للإخبار بأنهم مشركون فائدة[٣]،

(١) "التحرير والتنوير": (٨/٤٢).
(٢) "زهرة التفاسير": (٥/٢٦٤٤).
(٣) "التحرير والتنوير": (٤٢).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

وذلك لأن طاعتهم طاعة للشياطين ولا يكون مشركًا حقيقة حتى يطيعه في الاعتقاد ، أما إذا أطاعه في الفعل وهو سليم الاعتقاد فهو فاسق، وعلى هذا فإن هذه الجملة إخبار يتضمن الوعيد وأصعب الوعيد على المؤمن أن يشبه بالمشرك، فضلاً أن يحكم عليه بالشرك(١).

ونلاحظ أنه قد حذف من جواب الشرط (إنكم لمشركون) الفاء وذلك لكون فعل الشرط ماضيًا، ولأن الشرط إذا كان مضافًا يحسن في جوابه التجريد من الفاء، لأن تأثير الشرط الماضي في جزائه ضعيف، فكما جاز رفع الجزاء وهو مضارع، إذ كان شرطه ماضيًا، كذلك جاز كونه جملة اسمية غير مقترنة بالفاء....)(٢).

وهكذا نرى هذا التركيب الذي انتظم في سياق النهي وما تلاه من مؤكدات (إنه لفسق) و (إن الشياطين) و (إنكم لمشركون) لتكون رافدًا من روافد تغذية الجملة بكل معاني التأكيد، وذلك لتأكيد النهي والتحذير من الأمر المنهي عنه، فيزداد السامع والسمع تشبعًا به فيستقر مفهومه في الذهن وغايته في الوجدان وحينئذ يقع الكلام مؤكدًا.

إلى جانب هذا كله وتأثيره، اختيار الألفاظ التي تحمل ظلالاً موحية ومعبرة تؤدي للامتثال لهذا النهي منها ذكر لفظة (الله) وما فيه من معاني القهر والغلبة والجلال والامتثال لأوامره ونواهيه سبحانه، وبالإضافة إلى ما يوحيه من الجلال والعظمة فإن فيه دلالة على التخويف، فكأنه سبحانه سلك في سبيل ذلك التخويف طريقين:

- طريق العقوبة الإيجابية وهي توحي به كلمة (الله) من جلال ومهابة.

- طريقة العقوبة السلبية من خلال حرمانه من عطاء الله، وبذلك يكون تمام التخويف الذي به يكون ضبط حركة النفس وزجرها عن المعصية.

وهكذا يتناغم السياق كله من أساليب إنشائية وأساليب خبرية في إفادة المعنى وإبرازه.

(١) "لطائف الإشارات": (٤٩٨/١).
(٢) "التحرير والتنوير": (٤٣).

سابعا : الآية السابعة :

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

علاقة أية النحل بالمقصد العام للسورة:

لما شرع الله في ذكر أدلة الوحدانية والقدرة والنحل بالاختيار المستلزم للقدرة على البعض في قوله: (والله أنزل من السماء ماء .... لقوم يعقلون) ليُعلم أن أدلة ذلك أكثر من أوراق الأشجار، وأجلى من ضياء النهار، ولما كان ما أقامه على ذلك في هذه السورة من الأدلة قد صار إلى حد لا يحتاج معه السامع العاقل إلى أكثر من السماء، ولما كان أمر النحل في الدلالة على تمام القدرة وكمال الحكمة أعجب مما تقدم وأنفس ثلث به وأخره لأنه أقل الثلاثة عندهم، وغير الأسلوب وجعله من وحيه إيماء إلى ما فيه من غريب الأمر وبديع الشأن فقال تعالى: (وأوحى ربك) أي المحسن إليك بجعل العسل في مفاوز البراري المقفرة المفرطة المرارة وغيرها من الأماكن وبغير ذلك من المنافع، الدال على الفعل بالاختيار وتمام الاقتدار إلى (النحل) أي بالإلهام[1].

العلاقة بين آية الوحي في سورة النحل:

لقد ذُكرت ألوانُ عديدةُ من النعم في سورة النحل ليرى الإنسان فضل الله عليه حتى يعمل صالحًا، وينزجر عن المعاصي، وهي كثيرة تتعلق غالبًا بالجانب الروحي للإنسان، ومن هذه النعم:

نعم الوحي: قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل:٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]

(١) "نظم الدرر" للبقاعي : (٢٨٤-٢٨٥)، ط٢ مجلد ٤، دار الكتب العلمية بيروت/ لبنان.

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

فإرسال الرسل إلى البشر بشرعِ الله ومنهجهِ هو أعظم نعمة على الناس في كل العصور، هذه النعمة من أهم النعم وأعظمها قدرًا وشأنًا ، وذلك لأنها توصل الإنسان إذا آمن بالله إلى أفضل النعم والمنازل ألا وهي الفوز بالجنة، فالوحي ينزل من السماء ليحيي القلوب كما يحيي الماء الأرض والمخلوقات، فنزول الوحي يحيي الضمائر والعقول والمشاعر وحياة للمجتمعات يحفظ العالم من الفساد والتحلل والانهيار(١).

ففي خلق هذه النحلة الصغيرة التي هداها الله هذه الهداية العجيبة ويميز لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها، وهدايته لها ثم يخرج من بطونها العسل اللذيذ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها فيه شفاء للناس من أمراض عديدة، فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتمام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يعبد سواه(٢).

بين يدي الآية الكريمة :

ذكرت السورة قصة النحل، وفيها دلالة واضحة على عظمة الله ، فعالم النحل عجيب يدل على بديع خلق الله وعظمته، فالنحل فطره الله على أن يتخذ له بيوتًا من الجبال والشجر وما يعرشه الإنسان، أيضًا فطر الله النحل في العمل بنظام، فترى من النحل من يبني الخلايا، ومنهم من يجني الرحيق ليحوله إلى عسل ومنهم من يربي صغار النحل ومنهم من يحرص الخلية ومنهم من ينظف الخلية، نقول من هدى النحل إلى ذلك؟ إنه الله وفي هذا دليل على وجود الله قال تعالى:(وأوحى ربك .. ..)

عطف قوله (وأوحى ربك) على ما سبق وذلك من باب عطف عبرة على عبرة ومنة على منة، وغير أسلوب الاعتبار لما في هذه العبرة من تنبيه على عظم حكمة الله تعالى، إذ أودع في خلقه الحشرة الضعيفة هذه الصنعة العظيمة، وجعل فيها هذه المنفعة، كما أودع في الأنعام ألبانها، وأودع في ثمرات النخيل والأعناب شرابًا، وكان ما في بطون النحل وسطًا

(١) "في ظلال القرآن": (٤/٢١٦٠).
(٢) "تفسير السعدي": (٤٤٤).

بين ما في بطون الأنعام وما في قلب الثمار، فإنه النحل يمتص ما في الثمرات من المواد السكرية العسلية ثم يخرجه عسلاً كما يخرج اللبن من خلاصة المرعى[١].

وفيه عبرة أخرى وهي أن أودع الله في ذبابة النحل إدراكًا لصنع محكم مضبوط منتج شرابًا نافعًا لا يحتاج إلى حلب الحالب.

ويجوز أن تسمى واو القصة حيث عطفت قصة النحل على قصة استخراج اللبن من بين فرث ودم، واتخاذ السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب.

وعطف القصة على القصة لا يشترط أن يكون سردًا لأخبار ماضية كقصص الأنبياء والمرسلين، بل يتسع لما هو أشمل وأعم فهو يشمل عطف مجموع جمل متعددة تعرض على جمل مسوقة لغرض لآخر، والمعتبر في مثل هذا العطف هو تناسب القصتين، لا تناسب جمل القصتين، وهذا هو الكائن هنا بوضوح، وهو يدل على شدة تلاؤم النظم، والوصل هنا للتوسط بين الكمالين.

فافتتحت الجملة بفعل (أوحى) دون أن تفتتح باسم الجلالة مثل جملة (والله أنزل) لما في (أوحى) من الإيحاء إلى إلهام تلك الحشرة الضعيفة تدبيرًا عجيبًا وعملاً متقنًا، وهندسة في الجبلة، فكان الإلهام في ذاته دليلاً على عظيم حكمة الله تعالى، فضلاً على ما بعده من دلالة على قدرة الله تعالى ومنه.

وأصل قوله (أوحى) في اللغة أي الإشارة السريعة[٢]، وقيل أصله اللغوي: إعلام في إخفاء، وقيل لتضمنه معنى السرعة قيل أمر وحي[٣].

وللمفسرين آراء عدة لمعنى الوحي منها:

«الوحي: الكلام الخفي والإشارة الدالة على معنى كلامي ومنه سمي ما يلقيه الملك إلى الرسول وحيًا لأنه خفي عن أسماع الناس.

---

(١) "التحرير والتنوير": (٢٠٤).
(٢) "عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ": (٣٣٥/٤).
(٣) "مفردات الراغب": (٥٥٢).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

وأطلق الوحي هنا على التكوين الخفي الذي أودعه الله في طبيعة النحل، بحيث تنساق إلى عمل منظم مرتب بعضه على بعض لا يختلف فيه آحادها، تنبيهًا للإلهام بكلام خفي يتضمن ذلك الترتيب الشبيه بعمل المتعلم بتعليم المعلم، أو المؤتمر بإرشاد الآمر، الذي تلقاه سرًا.

فكان الإلهام في ذاته دليلاً على عظيم حكمة الله تعالى فضلاً على ما بعده من دلالته على قدرة الله تعالى ومنه(١).

ويرى الإمام الزمخشري أن الوحي إلى النحل لا يكون إلا «بإلهامها، والقذف في روعها، وتعليمها على وجه هو أعلم به لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه ... »(٢).

ويرى الإمام الرازي: أن الوحي لهذه الحشرات هو أن الله تعالى «سخرها وقرر في نفوسها هذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر وإن كانوا في غاية الذكاء والكياسة»(٣).

إلى غير ذلك من آراء بعض الأقدمين في مفهوم الوحي لهذه الحشرة (النحل)(٤) وكلها لا تخرج عن معنى الإلهام والتسخير المتفق على نظام دقيق.

أما علماء العصر الحديث لم يذهبوا بعيدًا في توضيح معنى الوحي للنحل عمن سبقهم من الأقدمين فكان لهم عدة آراء منها.

١- «إن الوحي في هذه الحالة المقصود به الإلهام والغريزة والفطرة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في هذه الحشرة البسيطة لكي تقوم بعملها على الوجه الأكمل الذي أراده الله لها، ومقصود به أيضًا الأعمال التي يؤديها النحل بالفطرة بناءً على الغرائز والطبائع

---

(١) "التحرير": (٢٠٥).
(٢) تفسير الكشاف": (٥٩٣/٢)، "تفسير أبي السعود": (١٢٥/٥).
(٣) تفسير الرازي": (٥٧٥/٩).
(٤) "روح البيان": (٥٠/١٤)، "القرطبي": (١٣٣/١٠)، حاشية شيخة زادة على البيضاوي (٢٩٦/٥).

التي أودعها الله سبحانه وتعالى في هذه الحشرة.

ولكن الفطرة التي خلق الله عليها النحل لا تقارن بفطرة أي من الكائنات الحية الأخرى سواء كانت أكبر أو أصغر من النحل أو أدنى أو أرقى منه، ولذلك استحقت أن تذكر في هذه الآية مقرونة بوحي الله سبحانه وتعالى إلى النحل، والمعروف أن الوحي يكون للرسل أصحاب الرسالات، وفي هذا تعظيم وتكريم للنحل من الله سبحانه وتعالى»[(١)].

٢- قيل: «الوحي من الله تعالى إلى نحل العسل قد يكون نوعًا من الإلهام الفطري الغريزي الذي زرعه الله تعالى في جبلتها أو في الشفرة الوراثية الخاصة بنوعها، أو ألقاه في روعها بعلمه وحكمته .. ».

«ولكن هنا سؤال إذا كان الوحي بمعنى الإلهام والتسخير كما اتفق على ذلك القدماء والمحدثون فلمَ عبر به هنا دونهما؟

عبر بالوحي هنا، لأنه أعم، فهو يتأتى مع الكائنات المختلفة حيث استعمل في القرآن -لمن يتأمل الآيات الوارد فيها- مع الكائنات الحية ملكًا أو نبيًا أو حواريًا أو بشرًا عاديًا أو نحلاً، أو الكائنات الجامدة أرضًا أو سماءً.

أما الإلهام فقد اقتصره ذكره في القرآن الكريم على النفس الإنسانية التي بين لها المولى ﷻ طريق الفجور والتقى، وتركها تتبع ما تريده بعقلها ومداركها وذلك في موضع واحد[(٢)] فحسب في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٧-٨].

أما التسخير بمعنى القهر والتذليل فجاء في القرآن مقصورًا على الكائنات غير الحية من الأجرام العليا والنواميس الكبرى في الكون التي لا تتغير ولا تتبدل حالتها مذ

(١) "الإعجاز العلمي في سورة النحل": (٢٤)، أ د/ حسني عبد الجواد شرف الدين، الدار المصرية للكتاب ٢٠١٦م.

(٢) بتصرف "مقالة د/ زغلول النجار في جردة الأهرام العدد ١٢٧ في ٢٠٠٣/١٠/٢٠

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

خلق الله الدنيا إلى يوم القيامة حيث قهرها الله على تنفيذ ما خلقت له مثل: الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم في البحر والفلك والجبال والريح.

وهذا من العجيب الدقيق جدًا في استعمالات الذكر الحكيم فإنه يخص التسخير بالجمادات وخص الإلهام بالنفس البشرية، ويعم الوحي للجميع كائنًا حيًا، وغير ذلك فمدلوله أعم وأوسع وأشمل(١).

وهنا يتبادر إلى الذهن عدة أسئلة منها:

- لماذا خص الله سبحانه النحل بوحيه دون سائر الكائنات غير المكلفة، وبماذا أوحى الله سبحانه إلى النحل؟

نجده سبحانه هو خالق الكون كله وخالق النحل، يعلم سره وجهره ويعلم مدى أهميته للبشرية، وفي هذا الوحي تكريم للنحل وتعظيم للخدمات التي يؤديها للإنسانية، وقد «اختص سبحانه وتعالى النحل بتسمية إلهامها وحيًا، لأنها ألهمت نظامًا محكمًا دقيقًا يعجز عنه بعض العقلاء فهي ألهمت أن يكون لها رئيس وهو يسوسها وهو ينصف بينها ويحكم بالعدل، وينفي القذي حتى إنه لو رميت على إحداها نجاسة قتلها تطهيرًا للجماعة، وأن تعيش طهورًا، وإنها تبني بنيانها بإحكام فتجعله على شكل مسدسات لكي يكون البناء محكمًا، ولكي يكون كل فراغ مسدوداً، وتجتمع جموع النحل، تذهب مجتمعة في غدوها ورواحها وفي غذائها وفي ريها حتى إنها تكون ذات منظر بديع يدل على إحكام الاتحاد بحيث لا تنأى عن الجمع واحدة .....

ولهذا التنظيم العجيب الذي يعجز عن بعضه أصحاب العقول قال تعالى (وأوحى ربك إلى النحل) وقد عبر النظم الكريم بالفعل (أوحى) للدلالة على المعنى ففي هذا دلالة على أن هذا الإلهام قد وقع ولكن لا تقتصر دلالة الفعل عند هذا الحد بل تمتد لتشمل الأزمنة البعيدة فالوحي والإلهام دائم ومستمر إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، ولذلك

(١) وجوه إعجاز القرآن العلمي والبلاغي في ضوء آيات النحل والنمل د/ عبد الله عبد الغني سرحان (١٤-١٥).

لم يقتصر الوحي على وقت محدد فقد استخدم النظم الكريم هذه اللفظة، «فالقرآن يتأنق في اختيار الألفاظ، ويستخدم كلاً حيث يؤدي معناه في دقة فائقة تكاد تؤمن معها بأن هذا المكان إنما خلقت له هذه اللفظة دون سواها ولذلك لا تجد في القرآن ترادفًا، بل كل كلمة تحمل إليك معنى جديدًا»(١).

وقدافتتحت الجملة بالفعل (أوحى) دون أن تفتتح باسم الجلالة مثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ [النحل:٦٥]، لما في أوحى من الإيحاء إلى إلهام تلك الحشرة الضعيفة تدبيرًا عجيبًا وعملاً متقنًا وهندسة في الجبلة.

وقد جاء القرآن الكريم بتنويع المضاف للرب وذلك للإشارة إلى عموم ربوبيته تعالى وسيطرته على جميع مخلوقاته الكونية والأرضية بالإضافة إلى ما يكتسبه المضاف إليه من تفخيم نتيجة لتفخيم المضاف، فالله رب العالمين ورب السماوات والأرض، ورب المشارق والمغارب ورب كل شيء ... فماذا بقى لإثبات عظمته تعالى وامتداد سلطانه وعموم قدرته، وماذا بقى في الكون خارجًا عن ملكوت الله، وقد عم سلطانه كل شيء؟(٢).

فالتعبير بالرب هنا دون غيره أفاد عموم ربوبيته للعالمين لما في معنى الربوبية من التربية والعطاء والعون والمدد والرعاية، وقضاء حوائج العباد، فالمقام مقام امتنان بنعمة عظيمة على بني البشر فناسب ذلك التعبير بلفظ (رب) الذي يدل على أنه سبحانه هو المتصرف في أمور مخلوقاته بإرادته بخلاف التعبير بالألوهية فإنه يتناسب مع مقام الاعتراف بوحدانية الله وعدم الإشراك به، لأن من معاني لفظ الجلالة (المتفرد بالوجود الحقيقي).

---

(١) "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية": د/عبد العظيم المطعني مجلد أول وثاني، ص٢٤٥، مكتبة وهبة.

(٢) أسماء الله الحسنى دراسة في البينة والدلالة، د/أحمد مختار عمر، ص ١٢٣ ط أولى ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

والخطاب في قوله (ربك) للنبي ﷺ، ومعه أمته ، بل والناس أجمعون فهو المبلغ عن رب العزة.

هذا، وقد تعدى الفعل أوحى بـ (إلى) وهي لانتهاء الغاية أي ألهم سبحانه النحل وانتهى إليها بأن تتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون.

وسمى بهذا الاسم لأن الله تعالى نحل العسل الذي يخرج من بطونها، وقيل : غير النحل يذكر ويؤنث، وهي مؤنثة في لغة الحجاز، وكذلك أنثها الله تعالى، وكذلك كل جمع ليس بينه وبين واحدة إلا الهاء(١).

والنحل أنواع كثيرة والمقصود به هنا نحل العسل، وعبر بقوله (النحل) بالجمع وذلك للدلالة على أن النحل لا يحيا حياة منفردة وإنما هم يعيشون في جماعات كبيرة متعاونة ومترابطة، كل منهم يعرف دوره الذي يؤديه ولكل جماعة ترأسها الملكة التي تسير الأمور، والدليل على ذلك أن هذه الحشرة «لا تستطيع أن تعيش حياة متفردة إذ بمجرد عزلها عن الطائفة بسبب ما فإنها تموت»(٢).

وأل في (النحل) لإفادة العموم الاستغراقي فالوحي الإلهي موجه لجميع أنواع النحل فكما ميز الله الإنسان على سائر مخلوقاته بأرفع درجات النمو العقلي لكي يعمر الأرض والكون كله، ميز النحل بأرق وأسمى وأرفع الغرائز والطبائع التي تمكنه من القيام بعمله على الوجه الأكمل الذي أراده الله له من أجل خدمة البشرية، سواء كانوا ذكروًا وإناثًا وغيرهم، فالوحي موجه للجميع وليس قاصر على فئة دون أخرى.

وبعد...

نأتي للإجابة على السؤال السابق وهو: بماذا أوحى الله للنحل؟

للإجابة على هذا السؤال نجد أن وحي الله سبحانه وتعالى إلى النحل يختص بثلاث

---

(١) "تفسير الرازي": (٢/٣٢٥).

(٢) "وجوه الإعجاز في آيات النحل": (٣٢).

خصال وهي:

١- اختيار المسكن.

٢- جمع الغذاء وأن يأكل من كل الثمرات.

٣- أن يسلك السبل التي ذللها الله له لتحويل ما جمعه من الغذاء إلى الشراب الذي فيه شفاء للناس.

- فالنسبة لاختيار المسكن: نجد أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى النحل باختيار المسكن في الجبال أو على الأشجار أو مما يعرشون، أي مما أعده الإنسان من الخلايا ليسكن النحل، وإذا نظرنا إلى هذه الأماكن الثلاثة نجد أن الإنسان لا يسكن في أي منها، وبالتالي فإن النحل لا ينافس الإنسان في مسكنه بعكس الكائنات الأخرى.

والنحل لا ينتج العسل إلا بعد أن يبني عشه وبيته ، فالترتيب بـ (ثم كلي) يأمن ويؤمن مسكنه ، ثم ينتج العسل نتيجة الغذاء .

- وبالنسبة لجمع الغذاء فالآية الكريمة تقول: ثم كلي من كل الثمرات «وهنا يهمنا أن نوضح أن النحل لا يقترب من الثمار المرة، ولا الثمار الصلدة بل لا يمكن من أن يأكل من الثمار الحلوة إذا كانت سليمة ....

أما إذا كانت مجروحة بفعل أحدى الحشرات الضارة أو مفتوحة بسبب زيادة نضجها فإن النحل يتناول عصارها وتنتج عسلاً غير مستاغ الطعم، ولكن المقصود بالثمرات هنا الزهرات التي سوف تتحول إلى ثمار فيما بعد ، فالأزهار هي أصل الثمار، والنحل يأخذ من الأزهار الرحيق وحبوب اللقاح، والرحيق يحوله النحل إلى عسل وهو المصدر الكربوهيدراتي في غذاء النحل، وهو مصدر الطاقة للنحل، وحبوب اللقاح هي المصدر البروتيني في غذاء النحل فهي مصدر جميع المكونات الحيوية للنحل من

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

بروتينات وأحماض أمينة وإنزيمات وفيتامينات وعناصر معدنية.[١].

- وبالنسبة للأمر (فاسلكي سبل ربك ذللاً)

عند النظر إلى هذه الجملة الكريمة نفهم من الوهلة الأولى أن الله سبحانه وتعالى يلهم النحل أن يتجول في السبل أو الطرق التي ذللها لها في الجو للبحث عن الغذاء، ولو كان هذا المعنى البسيط هو المقصود فإنه يجب ألا يسبقها جملة (ثم كلي من كل الثمرات) بل أن تأتي بعدها ولكن حاشا لله أن يخطئ، ومما يبعد ذلك المعنى السطحي عن هذه الآية، هو أن قدرة النحل على الطيران في جو السماء ليست كقدرة الطيور وبعض الحشرات القوية مثل الجراد، ولكن النحل يطير لمسافات قصيرة وعلى ارتفاعات منخفضة نسبيًا، خاصة إذا توفر غذاؤه بالقرب من خلاياه، ولا يمكن للنحل أن يطير أكثر من ٥-٧ أميال.

وأيضًا مما يبعد ذلك المعنى السطحي هو أن وجود جملة (فاسلكي سبل ربك ذللاً) في وضعها الحالي بالآية الكريمة يتطابق تمامًا مع المفهوم الأعمق والأدق لهذه الجملة، والذي يدل على أن النحل بعد أن يأكل من كل الثمرات يأمره الله أن يسلك السبل أو الطرق التي علمه إياها وذللها لكي يحول ما أكله من الطعام ويخرجه في صورة شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس[٢].

- الأمر الأول:

قوله تعالى: (أن اتخذي) للعلماء في دلالة (أن) أراء:

الرأي الأول: (أن) تفسيرية وما بعدها تفسير لما قبلها، فالوحي هو أمر الله تعالى لها أن تتخذ من الجبال بيوتًا تعيش في كهوفها، وتبيض بيضها فيها، (ومن الشجر) أي تأخذ من فروع الأشجار بيوتًا تصنع فيها ما يضعه صاحب البيت فيه، (ومما يعرشون)

(١) "الإعجاز العلمي في سورة النحل": أ د/ حسني عبد الجواد شرف الدين، جامعة المنوفية، رقم الإيداع بالدار المصرية٢٤٢٣٥/ ٢٠١٦.

(٢) "الإعجاز العلمي في سورة النحل": (١١٨-١١٩).

أي مما يعرشون على سقوفهم، ومما يعرشون لها من خلايا ....

وقد قال بهذا الرأي كثير من المفسرين ومنهم ابن عاشور حيث يقول: «وهي ترشيح للاستعارة التمثيلية لأن (أن) التفسيرية من روادف الأفعال الدالة على معنى القول دون حروفه»[١].

وعلى ذلك فجملة (اتخذي) مفسرة لقوله (أوحى) لما فيها من إجمال يحتاج لتفصيل وتوضيح.

الرأي الثاني: أنها مصدرية تؤول مع ما بعدها بمصدر في محل جر بحرف جر محذوف، والتقدير (بأن) والجار والمجرور يتعلق بأوحى والمعنى وأوحى ربك إلى النحل باتخاذه بيوتا في كهوف الجبال ومن الشجر ومما يعرشون.

الرأي الثالث: جواز الأمرين حيث قرأت بفتحتين (أن اِتَّخِذِي) أي بأن اتخذي على أنّ أنْ مصدرية ويجوز أن تكون مفسرة لما في الإيحاء من معنى القول وتأنيث الضمير مع أن النحل مذكر للحمل على المعنى أو لأنه جمع نحلة والتأنيث لغة أهل الحجاز[٢].

والراي الراجح هو الرأي القائل بأن أن تفسيرية، وذلك بحسب السياق من واقع الاستعمال القرآني حيث يقول الاستاذ الدكتور عبد الله سرحان:

لكي نرجح رأيًا على آخر لابد أن نعود إلى السياق القرآني نسأل ونستأنس به في استعمال الفعل (أوحى) هل تعدى إلى المتعلق الثاني بحرف الجر الباء أم لا؟[٣].

ونتج عن هذا الاستقصاء[٤] خلو جميع الآيات من دخول الباء التي قدرها بعض

---

(١) "زهرة التفاسير": (٤٢١٣/٨)، "التحرير والتنوير": (٢٠٤/١٤).

(٢) "إرشاد العقل السليم": (١٣٥/٥).

(٣) وجوه إعجاز القرآني العلمي والبلاغي في ضوء آيات النحل والنمل د/ عبد الله عبد الغني سرحان ٢٥.

(٤) المواضع التي وردت فيها أن بعد الفعل (وحى) أثني عشر موضعًا، المائدة:١١١، الأعراف:١١٧/١٦٠، يونس:٨٧/٢، النحل:٦٨، مريم:١١، طه:٧٧، المؤمنون:٢٧، الشعراء:٥٢/٦٣ن القصص:٧

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

المفسرين مما يؤكد صحة الرأي القائل بأن (أن) تفسيرية، كما أن الحرف (أن) قد وليه دائمًا فعل أمر بإطراد، والملاحظ أن هذا الحرف إذا وليه أي فعل أمر في القرآن الكريم فلا تلحقه الباء مطلقًا.

وعلى هذا فإن الأفعال الواردة بعد (أن) في قوله تعالى: (أتخذي ثم كلي، فاسلكي) تفسير الإبهام وتفصيل الإجمال الموجود في الفعل (أوحى) والتفسير بعد الإبهام مسلك بلاغي دقيق من مسالك فن الإطناب، وهو يؤكد المعاني في النفس، ويزيدها رسوخًا وقوة ويعلي من شأنها(١).

وقد عبر النظم الكريم بقوله (اتخذي) بدلا من (خذي) وذلك للمبالغة في هذا الأمر، فالاتخاذ افتعال من الأخذ أي أن النحل سيعمل كل ما بوسعه لتنفيذ أمر الله مهما كلفه هذا الأمر من عناء ومشقة بخلاف قوله (وأوحى ربك إلى النحل أن خذي) لأنها بهذا التعبير لا توضح الدور الكبير الذي يقوم به النحل من تنفيذ ما أمرت به وسخرت من أجله وهو بناؤها للخلايا في الجبال وفي الشجر ومما يعرشون على نحو بارع منظم يعجز عنه العقول.

ومن ثم لا يمكن للثلاثي (خذي) أن يوفي بالغرض المقصود من الكلام، والقرآن الكريم يتخير ألفاظه بدقة وعناية فائقة فـ "زيادة المبني يصحبها زيادة في المعنى" فالأمر الموجه للنحل هنا بالإتخاذ وليس بالأخذ.

والخطاب في قوله (اتخذي، وكلي، واسلكي) للإناث، بالرغم أن الكلام في السابق عن النحل فلمَ جاء بصيغة التأنيث ولم يأت مذكرًا؟.

للإجابة على ذلك نقول: أن التأنيث يتفق تمامًا مع الواقع الذي عرف في العصر الحديث، وذلك لأن جميع الأعمال التي تتم داخل وخارج الخلية تقوم بها الشغالات وهي إناث عقيمة، أو الملكات التي تقوم بوضع البيض أما الذكور فلا تقوم إلا بتلقيح الملكات

(١) بتصرف من وجوه إعجاز القرآني العلمي والبلاغي في ضوء آيات النحل والنمل د/ عبد الله سرحان :٢٥.

العذارى.

«وجاء الضمير مؤنثًا مفردًا، بدلاً من أن يقول (اتخذن) لأن وحي الله للنحل جعله غريزة موروثة في كل نحلة على حدة، فتعرف كل شغالة عملها بمجرد نشأتها، ولم يعرف حتى الآن أنها تتعلم وتتدرب على ذلك لتكسب هذا السلوك، بل تقوم بعملها على أكمل وجه بدون سابق معرفة لها، وهذه الحقائق لم تعرف إلا حديثًا»[١].

قوله ﴿من الجبال بيوتًا﴾

اختلف المفسرون في معنى (من) على آراء منها:

١- أنها للتبعيض أي يتخذون بعض الجبال وبعض الشجر وبعض مما يعرشون، وما يخصص لها من خلايا يكون كله لها بهذا التخصيص[٢]، «وأن لا تبني بيوتها في كل جبل، وكل شجر، وكل ما يعرش، ولا في كل مكان منها»[٣].

٢- أنها بمعنى (في) وأصلها (من) الابتدائية، فالتعبير بها دون (في) الظرفية لأن النحل تبني لنفسها بيوتًا ولا تجعل بيوتها حجورًا في الجبال ولا أغصان الشجر ولا أعواد العريش[٤].

والراجح أنها للتبعيض لأنه لو قيل (وأوحى ربك إلى النحل أن أتخذي الجبال...) لفهم أنها اتخذت كل الجبال والأشجار بيوتًا وهذا مخالف لطبيعة النحل فهي تتخذ بيوتها في أحسن البقاع من الجبال أو الشجر أو العريش دون بيوت الحشرات الأخرى، وذلك لشرفها بما تحتويه من المنافع، وبما تشتمل عليه من دقائق الصنعة.

فتبارك الله رب العالمين الذي أنزل القرآن العظيم بميزان حكيم وقسطاس مستقيم، وهذا من أبين الأدلة على إعجازه في اختيار ألفاظه، وانتقاء حروفه، ولا يقدر

---

(١) "الإعجاز العلمي في سورة النحل": د/ حسني، وجوه الإعجاز في آيات النحل: ٧٦-٧٧.
(٢) "زهرة التفاسير": (٨/٤٢١٤).
(٣) "الكشاف للزمخشري": (٢/٥٩٤)، "تفسير النيسابوري": (٥/٢٨٠).
(٤) "التحرير والتنوير": (٢١٠).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

على ذلك كائن ما كان في أي زمان ومكان ، وهـذا الترتيـب في ذكربيـوت النحـل وتقـديم بعضها على بعض ، لأن العسل الجبلي أجود وأغلى وأفيد أنواع العسل ، يليه عسل الشـجر في المناطق الحضرية ، يليه عسل الخلايا المتخذه في البيوت والمناحل المبنية .

وعبر النظم الكريم بجمع الكثرة (الجبال) دون جمع القلـة (أجبـل) للدلالـة على كثرة المناطق الجبلية التي يتخذها أعشاشًا بخلاياه، فهي لم تكن داخل الجبال وإنما تبني خلاياها في مناطق معينة تلائم أعشاشها وطبيعتها وهذا ما دل عليه حرف الجـر (مـن) الذي يفيد التبعيض والجزئية بالإضـافة إلى مـا أفادتـه (أل) في الجبـال فـهي للاسـتغراق العرفي أي "اتخذي لك بيوتًا من فجوات بعض الجبال".

وجاءت لفظة (بيوتًا) نكـرة للنوعية : أي بيوت من نوع خاص، و«اتخاذ البيـوت هو أول مراتب الصنع الدقيق الذي أودعه الله في طبائع النحـل فإنهـا تبـني بيوتًـا بنظـام دقيق، ثم تقسم أجزائها أقسامًا متساوية بأشكال مسدسة الأضلاع بحيث لا يتخلل بينها فراغ تنساب منه الحشرات، لأن خصائص الأشكال المسدسة إذا ضم بعضها إلى بعـض أن تتصل فتصير كقطعة واحدة، وما عداها من الأشكال من المثلث إلى المعشرـ إذا جمـع كل واحد منها إلى أمثاله لم تتصل وحصلت بينها فُرجُ، ثم تغُشى على سطوح المسدسات بمادة الشمع، وهو مادة دهنية متميعة اقرب إلى الجمود، تتكون في كيس دقيق جدًا تحت حلقة بطن النحلة العاملة فترفعه النحلة بأرجلها إلى فمها وتمضغه وتضع بعضه لصـق بعـض لبناء المسدس المسمى بالشهد لتمنع تسرب العسل منها»[1].

فمن الذي أوحى للنحل بذلك ولماذا بناها سداسية ولـم يجعلهـا في صـورة دوائـر وذلك لأن الشكل السداسي هو أقرب الأشكال إلى الشكل الدائري اللازم لتربيـة الحضـنة ولكن لا يترك مسافات فارغة كما هو الحال في الدوائر، إنه الخـالق القـادر على كل شيء هو الذي أوحى للنحل بذلك النظام الهندسي البـديع الذي عرفـه النحـل قبـل أن يعرفـه الإنسان.

(١) "التحرير والتنوير": (١٤/٢٠٤).

ولما كانت بيوت النحل معروفة للمخاطبين اكتفى في الاعتبار بها بالتنبيه عليها والتذكير لها.

وقد بدأ سبحانه بالبيوت لأنها من عجب الدهر في حسن الصنعة وبراعة الشكل، وبراعة الإحكام وتمام التناسب(١).

والتعبير بلفظ (بيوتًا) استعارة تصريحية حيث شبهت الخلايا التي يبنيها النحل بالبيوت التي يبنيها الإنسان بجامع حسن النسق ودقة الصنع.

وسر التعبير بهذه الاستعارة الرائعة ما فيه من دلالة على الجهد المبذول الذي يقوم به النحل للحصول على طعامه طوال النهار ثم يذهب للراحة في بيته ليست فيه إضافة إلى ما فيه من إشارة إلى الترابط والتعاون بين مجتمع النحل في بناء بيته بهذا الشكل الهندسي البديع والرائع الذي يعجز عنه الإنسان.

وقوله (ومن الشجر) عطف مفرد على مفرد أي عطف الشجر على الجبال أي أن النحل بناء على أمر الله قد اتخذ بيوته في الجبال ثم اتخذها في الشجر، فقد «أمر الله النحل بأن يعيش في الجبال أولاً ثم في الشجر ثم في الأعراش التي يقيمها الناس.... وهو ما وصل إليه العلم بعد الدراسات والمشاهدات، واستخدام وسائل الفحص العلمي، والمتابعات لبيان التاريخ لحياة النحل على الأرض.... »(٢).

ولذلك قدم النظم الكريم الجبال على الشجر بناء على أمر الله لها بالسكن في الجبال ثم في الأشجار وذلك بالإضافة إلى نوعية العسل ، ويبدو لي بأنه سبحانه بدأ أولاً بالجبال لأنها أكثر الأماكن طمأنينة للنحل فتهدأ ويسكن ويؤدي الدور المطلوب منه فإذا لم يتلاءم السكن معه في الجبال فإنه يبحث لنفسه في سكن الأشجار فإذا لم يتوفر يكون في الأعراش، فكلما أن النحل أنواع كذلك لكل نوع طبيعة معينة خاصة به تتلاءم مع السكن المعين -والله أعلم-.

---

(١) "نظم الدرر": (٢٨٣).

(٢) "من بلاغة القرآن": د/ احمد بدوي ص٥٧ نهضة مصر بدون.

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

وبناء عليه جاء هذا الترتيب القرآني الدقيق للألفاظ ، فكل نوع من عسل هذه المساكن يعالج أمراضاً لايعالجها الآخر ، ولكنها مجتمعة تعالج كل أدواء لإنسان بإذن الله .

وحرف الجر (من) للتبعيض كسابق أي تأخذ من فروع الأشجار بيوتًا تصنع فيها ما يصنعه صاحب البيت فيه ، وتكرير حرف الجر أفاد تقرير المعنى وتأكيده وأضفى على الكلام رونقًا وجمالاً.

وأل في (الشجر) للاستغراق العرفي لأنها لا تبني أعشاشها على كل أنواع الأغصان والأشجار وإنما تبنى خلاياها على الأشجار ذات الجذوع القوية المختلفة الأغصان والمتشعبة وهذا النوع من الأشجار لا يتوفر في كل مكان وفي كل بيئة ولهذا السبب أيضًا عبر النظم الكريم بتلك اللفظة الشجر دون سواها من الألفاظ الأخرى.

وفي قوله تعالى: (ومن الشجر) حذف إذ التقدير "اتخذي من الجبال بيوتًا ومن الشجر بيوتًا" وذلك لفهمها من السياق ولدلالة ما قبلها عليها.

وقوله (ومما يعرشون) من عطف المفرد على المفرد كسابقه و(مما) مكونة من (من، ما) و (ما) اسم مبني على السكون في محل جر بمن، وهي اسم موصول بمعنى الذي، والجملة الفعلية (يعرشون) صلتها، وعائد الصلة محذوف تقديره (من الذي يعرشونه)، والضمير في في (يعرشون) للناس.

وعبر النظم الكريم لقوله (يعرشون) بدلاً من قوله: (يبنون) وذلك لأن العرش يُلمح فيه العلو والارتفاع، ومنه سمى السرير الذي يرتفع عن الأرض ليجلس عليه الملوك والعظماء عرشه والعريش للبناء العالي الذي يستظل به، والنحل لا يعيش داخل البيوت مع الناس بل غالبًا يعيش أعلى أسطح المنازل، أو في الأماكن العالية المرتفعة التي يعدونها له.

وقد جاء قوله (يعرشون) بعد الجبال والشجر إشارة عظيمة كما "تدل الحفريات

على أن نحل العسل ظهر على الأرض قبل ظهور الإنسان"[١].

وقد حذف مفعول الفعل "يعرشون" وذلك للدلالة على العموم أي: كل ما يعرشه الناس من أي نوع، خشب أو كرم..

كما حذف لفظة "بيوت" أيضًا كالسابق إذ الأصل "اتخذي من الجبال بيوتًا ومن الشجر بيوتًا ومما يعرشون بيوتًا فحذف لدلالة السابق عليه.

ومجيء الفعل (يعرشون) مضارعًا لإفادة التجدد الاستمراري واستحضار تلك الصورة الرائعة أمام المتلقي وذلك أدعى للعظة والاعتبار.

«ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لأية لقوم يتفكرون».

ولما كان أهم شيء للحيوان[٢] بعد الراحة من هم المقيل الأكل، ثنى به، ولما كان عامًا في كل ثمر، ذكره بحرف التراخي إشارة إلى عجيب الصنع في ذلك وتيسره لها فقال تعالى:

(ثم كلي من كل الثمرات)

(ثم) أداة رقيقة هامسة، تنساب معها المعاني إلى النفس في لطف، ويحرك الزمن في هدوء، وهذا معنى يصاحبها في حقيقتها ومجازاها، والتعبير هنا يرسم مشهد الأكل الذي يقوم به النحل بعد اتخاذها للبيوت من الجبال والأشجار ومما يعرشون، ويد الله الخفية التدبير، تمده في رفق بما يلزمها من أكل، ويأمرها بمقتضي الفطرة التي فطرها تعالى: (ثم كلي من كل الثمرات...)

وقد عبر النظم الكريم بقوله (كلي) بدلاً من (امتصي) حيث سمى امتصاص

(١) "وجوه الإعجاز في آيات النحل": (٧٨).
(٢) نظم الدرر للبقاعي: (٤/٢٨٦).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

النحل رحيق الأزهار أكلاً لأنها تقتاته فليس هو بشرب[١]، أي أن ارتشافها لرحيق الأزهار يعد أكلاً لها تتغذى عليه، وما تبقى من غذائها تفرزه عسلاً.

فعملية الأكل عند النحل تتم على النحو التالي «تحط النحلة على الزهرة وتمد خرطومها، وتبدأ بمص ما تستطيع من رحيقها، ثم تنقله إلى فراغ الفم بحركات رتيبة عجيبة في عضلات البلعوم، ثم إلى كيس العسل، ثم تطير إلى زهرة أخرى، وهكذا حتى يمتلئ الكيس فتعود إلى خليتها لتفرغ حمولتها.. »[٢].

فعملية الأكل لدى هذه الحشرة يمر بمراحل عدة، كما تمر عملية الأكل لدى الإنسان فناسب اللفظ المعنى.

والكلام عن النحل جاء في صيغة التأنيث ولم يأت مذكرًا، (واتخذي - كلي - اسلكي) وذلك لأن التأنيث يتفق تمامًا مع الواقع الذي عرف في العصر الحديث، وذلك لأن جميع الأعمال التي تتم داخل وخارج الخلية تقوم بها الشغالات، فهي من تقوم بالامتصاص وارتشاف رحيق الأزهار، ثم تفرزه عسلاً.

وحرف (من) في قوله (من كل الثمرات) للتبعيض أي كلي جزءًا أو شيئًا من كل الثمرات، وذلك إنها إنما تأكل النوار من أشجار[٣].

«فالنحل يأكل أجزاء من كل أنواع الثمرات، فالنحل يأكل الرحيق وحبوب اللقاح من الأزهار، والأزهار هي اصل الثمار .... فحرف من الذي يدل على التبعيض يستثنى الأصناف عديمة البذور فلا توجد في ثمارها خلايا جنسية، ولم تعرف هاتان الحقيقتان إلا في العصر الحديث (١٧٢٩م) أي بعد نزول القرآن بمئات السنين ... فليست كل الثمار صالحة للأكل، فعلى سبيل المثال ثمرة البطاطا أو البطاطس أو البصل هي عبارة عن

(١) "التحرير والتنوير": (٢٠٧/١٣).
(٢) "وجوه الإعجاز في آيات النحل": (٩٢-٩٣).
(٣) "فتح القدير للشوكاني": (٢٤٣/٣).

البذور التي تنتجها الأزهار، وليست للأكل بل لحفظ النوع من الانقراض »[١].

وعبر النظم الكريم بقوله (الثمرات) دون غيرها لأن ما تأكله النحل من رحيق الأزهار وحبوب الطلع تثمره عسلاً مصفى لذا ناسب اللفظ المعنى المراد.

وفي قوله (ثم كلي من كل الثمرات) طباق بين قوله (من) التي للتبعيض التي للعموم وقوله (كل) ومنه إرشاد لها إلى وجوب العمل، وترتيبه حيث سخرها الله تعالى لأن تسوي البيت ثم تأخذ من كل ثمرة جزءًا للجرس للعسل[٢].

كما أن بين قولي: (كلي) (كل) جناس ناقص بين الفعل الأمر (كلي) والاسم (كل) وقد أحدث هذا الجناس تنغيمًا عذبًا استصغى الآذان واشتمال النفوس وجعل القلوب مشدودة لسماع المعاني «فإن النفس تشوق إلى سماع اللفظة الواحدة إذا كانت بمعنين وتتوق إلى استخراج المعنيين المشتمل عليهما ذلك اللفظ، فصار للتجنيس وقع في النفوس وفائدة»[٣].

وعطفت جملة فاسلكي بفاء التقريع للإشارة إلى أن الله أودع في طبع النحل عند الرعي التنقل من زهرة إلى زهرة ومن روضة إلى روضة، وإذا لم تجد زهرة أبعدت الانتجاع، ثم إذا شبعت قصدت المبادرة بالطيران عقب الشبع لترجع إلى بيوتها فتقذف من بطونها العسل الذي يفضل عن قوتها، فذلك السلوك مُفرَّع على طبيعة أكلها، وبيان ذلك أن للأزهار وللثمار غددًا دقيقة تفرز سائلاً سكريًا تمتصه النحل وتملأ به ما هو كالحواصل في بطونها وهو يزداد حلاوة في بطون النحل باختلاطه بمواد كيميائية مودعة في بطون النحل، فإذا راحت من مرعاها إلى بيوتها أخرجت من أفواهها ما حصل في بطونها بعد أن أخذ منه جسمها ما يحتاجه لقوته، وذلك يشبه اجترار الحيوان المجتر.

---

(١) "وجوه الإعجاز في آيات النحل": (١٠٢-١٠٦).
(٢) "حاشية الشيخ زادة على البيضاوي": (٢٩٧/٢).
(٣) "جوهر الكنز لابن الأثير الحلبي": ٩١، ت.د/ محمد زغلول سلام، منشأة المعارف الإسكندرية بدون.

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

قوله (سبل ربك ذللا) عبر النظم الكريم بجمع الكثرة دون المفرد (سبيل) وهو أكثر استعمالاً في الذكر الحكيم، والسبب في ذلك حتى يتناسب الجمع الذي يفيد الكثرة مع مجموع غدد النحل وخلاياه، المختلفة والتي تعمل بجد على تكون العسل النحل وإضافة السبل إلى (ربك) أي المحسن إليك بهذه التربية العظيمة لأجل الأكل ذاهبة إليه وراجعة إلي بيوتك حال كون السبل (ذللا) أي موطأة للسلوك مسهلة كما قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾ [الملك:١٥](١).

وفي الإضافة إشارة إلى أن النحل مسخرة لسلوك تلك السبل لا يعدلها عنها شيء، لأنها لو لم تسلكها لاختل نظام إفراز العسل منها(٢): «وأنه لولا عظيم إحسانه في تربيتها لما اهتدت إلى ذلك العمل العجيب»(٣).

وقوله (ذللاً) جمع زلول أي مذللة مسخرة لذلك السلوك، وقد جاءت جمعًا ومنكرة وذلك للدلالة على أنها سبل عظيمة مذللة تذليلاً غير معهود.

ثم أتبع المولى تبارك وتعالى نتيجة قوله (فأسلكي سبل ربك ذللاً) جوابًا لمن قال: ماذا يكون عن هذا كله؟

فقال تعالى: (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) لذا فصلت الجملة عما سبقها لشبه كما الاتصال، وهذا الفصل وصل خفي أي أنه وصل بغير أداة لفظية، وذلك لما بينهما من الاتصال والربط الذاتي المنافي للعطف، فهذا اللون مظهر من مظاهر نشأة المعاني بعضها من بعض وتمهيد بعضها لبعض، قال الخطيب: «أما كونها بمنزلة المتصلة بها فلكونها جوابًا عن سؤال اقتضته الأولى، فتنزل منزلته فتفصل الثانية عنها كما يفصل الجواب عن السؤال»(٤).

(١) "نظم الدرر": (٤/٢٨٤).
(٢) "التحرير والتنوير": (٢٠٧).
(٣) "البقاعي": (٤/٢٨٦).
(٤) "الإيضاح": (٣/٩٧).

- وعبر بالفعل المضارع (يخرج) للدلالة على تجدد الخروج وتكرره ولعل ذلك هو السر في مجيء هذا القيد (من بطونها) لأن المعنى يتم إذا قيل: (يخرج شراب مختلف ألوانه) فدلالة الإخراج كافية إلا أن هذا القيد يعد في غاية البراعة والبيان إذا جعل الصورة تامة أمام أعين المتلقي، وهي معجزة وميزة خص الله سبحانه وتعالى النحل دون سائر المخلوقات الأخرى، وهذا يدل على أن عملية مزج «ما جمعته النحلة من الرحيق لكي تحوله إلى عسل تمت دون تدخل من النحلة وإنما هي مكان التصنيع الذي أراده الله سبحانه وتعالى»[١].

ولم يقل (تخرج) حتى لا تكون هي التي أتمت عملية تصنيع الشراب الذي يخرج من بطونها خروجًا طبيعيًا دون أن تتحكم النحلة فيه وذلك بقدرة الله سبحانه وتعالى فأي كائن مهما كان شأنه يتم التخلص من مخرجاته حتى لا تسبب له وللآخرين أي أضرار، بينما مخرجات النحل فيها شفاء للناس.

وهذه هي الخصلة الثالثة أو الميزة الثالثة التي خص الله النحل بها وأوحى بها إليه وهي تحويل طعامه وإخراجه في صورة شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، وهي ميزة لا تتوفر لأي مخلوق آخر غير النحل سواء كان إنساناً أو حيواناً.

قوله (من بطونها) من ليست للتبعيض وإنما هي لابتداء الغاية فقد ذكر سبحانه مبدأ الغاية الأولى وهي البطون ولم يذكر سبحانه مبدأ الغاية الأخيرة والجمهور على أنه يخرج من أفواهها[٢].

وجاء لفظة (بطون) جمع بالرغم من أن الخطاب موجه للأنثى "الشغالة وذلك لأن العلم الحديث أثبت أن للنحلة ثلاثة بطون حيث قيل، يتألف بطن النحلة العاملة من ثماني حلقات دقيقة مرنة، وتتألف كل حلقة من ثلاث صفائح ظهرية وبطنية ووسطى،

---

(١) " وجوه إعجاز القرآني العلمي والبلاغي في ضوء آيات النحل والنمل د/ عبد الله عبد الغني سرحان ٥٩

(٢) "الألوسي": (٣٧٨/٩).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

وتحتوي حلقات البطن من الناحية الداخلية على بعض الغدد المفرزة التي تساهم في احتياجات الطائفة الحيوية ...."[١].

كما تبين أن للنحلة ثلاثة تجاويف أو بطون، تأخذ الرحيق ويدخل للبطن الأول فترة، ثم يفتح صمام فينزل إلى البطن الثاني الذي يحوله عسلاً، وفي نهاية صمام لا يسمح بنزول العسل منه إلى الجوف أو البطن الثالث إلا للضرورة وبشيء قليل.

والجوف الثالث أو البطن الثالث وفيه أحشاء النحلة إذ تتغذى بهذا القليل أثناء طيرانها ولتستكمل رحلتها عندما تعود إلى الخلية، هنا المعجزة ! فإنها تستعيد ما في البطن الثاني من العسل الصافي وتخرجه من فمها وتضعه في تخاريم الخلية، وليس من أمعائها، لذا قال تعالى (يخرج من بطونها ....)[٢]

كما أن هذا الجمع يدل على "أن ما يخرج من كل البطون بالنسبة للطائفة الواحدة من النحل متشابه، وهذه أيضًا حقيقة علمية حيث إن الطائفة لا ترتشف الرحيق ولا تأكل حبوب اللقاح إلا من نبات واحد في فترة محددة ثم تنتقل إلى غيره في موسم آخر وهكذا، ولا تجتمع الطائفة على أكثر من رحيق واحد في آن واحد، وكذلك يتضح أنه وإن تعددت بطون النحل ومصانع العسل الإلهية هذه إلا أن النتيجة واحدة، والشراب واحد، شراب خصه الله بما خصه من مزايا ليكون شفاء للناس ورحمة[٣].

وعود الضمير في (بطونها) على شغالات النحل وهذا يتفق مع الحقيقة العلمية القائلة إن العاملة هي التي تقوم بإخراج المواد الشافية[٤].

وفي قوله (يخرج من بطونها) لفت لكلام لعدم قصدها إلى هذه النتيجة[٥]، حيث

---

(١) "وجوه الإعجاز في آيات النحل ١٣٢

(٢) مقال (بطون الأنعام وبطون النحل) للدكتور أيمن صبري فرج حماد/ الاستاذ المساعد بقسم تغذية الحيوان والدواجن "موقع إعجاز القرآن والسنة".

(٣) وجوه الإعجاز في آيات النحل ١٣٤.

(٤) وجوه الإعجاز في آيات النحل ١٣٤.

(٥) "انظم الدرر للبقاعي ": ٢٨٦.

التفت سبحانه من قوله (أسلكي) وما سبق وهو خطاب إلى الغيبة في قوله (بطونها) ولو كان على ظاهرة لقال (بطونك) فقد رجع الخطاب إلى الخبر على جهة تعديد النغمة والتنبيه على العبرة(١).

«والسبب فيه أن المقصود من ذكر هذه الأحوال لعله" أن يجنح به على الإنسان المكلف به على قدرة الله تعالى وحكمته وحسن تدبيره لأحوال العالم العلوي والسفلي، فكأنه تعالى لما خاطب النحل بما سبق ذكره خاطب الإنسان وقال إنا ألهمنا هذا النحل لهذه العجائب، لأجل أن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه»(٢).

وفي تقديم الجار والمجرور (من بطونها) على فاعله (شراب) للفت الانتباه على ما يظهر منها من تعاجيب صنع الله تعالى التي هي موضع العبرة بعدما أمرت بما أمرت، ففي التقديم دلالة عجيبة على هذا العمل الدقيق الذي أوحى به الله سبحانه لهذه الحشرة الصغيرة.

وقدم (من بطونها) على الفاعل (شراب) لغرابة الحكم ومخالفة العادة ، لأن العادة جرت أن يكون ماءً من العيون والأنهار والأمطار أو عصيراً من ماء الفواكه ، فكون العسل شراباً تطلبه الأنفس وترتاح له وتستلذ به ، ولا يخرج مما ألفوه من بقية شرابهم ، بل يخرج من بطن النحل ،لذا كان التقديم للاهتمام وغرابة موضع ومنبع ذلك الشراب الخاص ، فكان التقديم ضرورة يقتضيها السياق والمقام .

وعبر بالعسل باسم الشراب دون العسل لما يومئ إليه اسم الجنس من معنى الاستنفاع به وهو محل المنة، وليُرتب عليه جملة فيه شفاء للناس، وسمي شرابًا لأنه مائع يشرب شربًا ولا يمضغ(٣).

وقد أكد العلم الحديث إن المقصود بالشراب هنا ليس العسل فقط حيث قيل

(١) تفسير القرطبي: ١٣٢/١٠.
(٢) تفسير الرازي": (٢٣٥/٢٠).
(٣) التحرير والتنوير": ٢٠٢.

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

ليس العسل هو المقصود بالشراب، وذلك لأن العسل هو أبسط منتجات النحل وأسهلها تصنيعًا، ولو كان العسل هو المقصود بالشراب لكان ذكره صراحة لأن العسل ذكر في القرآن الكريم من سورة محمد، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥].

فذكر العسل كشراب من مشارب أهل الجنة ، وبعد أن كان مفهومًا أن الشراب الذي يخرجه النحل من بطنه وفيه شفاء للناس هو العسل، ظهر من الدراسات التي أجريت في العصر الحديث أن النحل يخرج من بطنه سوائل أخرى بالإضافة إلى العسل وفيها شفاء للناس مثل غذاء الملكات الذي يطعم به النحل صغار اليرقات والملكات، والسم الذي يلسع به أعداءه عن طائفته.

والشمع الذي يخرج من جسمه سائلاً ويتجمد بمجرد تعرضه للهواء لكي يبني به أقراص الشمع في صورة عيون سداسية بعضها ضيق(٢٥ عين) بوصة مربعة لتربية حضنة الشغالات، وبعضها واسع (١٦ عين) بوصة مربعة لتربية حضنة الذكور وتخزين العسل(١).

فالتعبير بقوله (شراب) أنسب بالمقام وللدلالة على كثرة هذه الأشربة لأن اسم الجنس يصدق على كثيرين، لفظة (شراب) نكر للنوعية والكثرة أي كما أكد ذلك مجيء، أنها أنواع كثيرة من الأشربة مختلفة في طعمها ولونها عن غيرها فهو شراب من نوع خاص.

"مختلف ألوانه" من أبيض، أحمر، أصفر وغير ذلك، اختلافًا دالاً على أن فاعله مع تمام قدرته مختار(٢).

ووصفه بـ "مختلف ألوانه" لأن له مدخلاً في العبرة كقوله تعالى: ﴿تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ [الرعد:٤]، فذلك من الآيات على عظيم

(١) وجوه إعجاز القرآني العلمي والبلاغي في ضوء آيات النحل والنمل د/ عبد الله عبد الغني سرحان ٦٤

(٢) نظم الدرر": (٢٨٦).

القدرة ودقيق الحكمة[١] ، واختلاف الألوان وتعددها تتناسب مع ذكر اختلاف مساكن النحل ، واختلاف اللون تبع لاختلاف المسكن والغذاء.

والمقصود من اختلاف الألوان هنا هو: إبطال القول بالطبع، لأن هذا الجسم مع كونه متساوي الطبيعة لمَّا حدث على ألوان مختلفة، دل ذلك على أن حدوث تلك الألوان بتدبير الفاعل المختار، لا لأجل إيجاد الطبيعة[٢].

«فالقدرة الإلهية بحسب تنويع الغذاء، كما يختلف طعمه بسبب اختلاف المراعي»[٣].

كما جاء قوله (مختلف ألوانه) على صيغة اسم الفاعل للدلالة على ثبوت تلك الصفة فالشراب يخرج من بطون النحل مختلف الألوان فهو محتفظ بتلك الصفة منذ البداية.

واختلاف اللون سببه يرجع إلى حقيقتين علميتين:

الأولى: اختلاف مرعى النحل يؤثر تأثيرًا كبيرًا في لون العسل، وذلك أن نوعية الرحيق وقف على نوعية الأزهار التي يرعاها النحل....

الثانية: اختلاف تركيبة التربة بين بقاع الأرض المختلفة يؤدي إلى اختلاف لون العسل[٤].

(فيه شفاء للناس)

يقول ابن عاشور جعل الشفاء مظروفًا في العسل على وجه الظرفية المجازية، وهي الملابسة للدلالة على تمكن ملابسة الشفاء إياه، وإيماء إلى أنه لا يقتضي أن يطرد الشفاء به في كل حالة من أحوال الأمزجة، أو قد تعرض للأمزجة عوارض تصير غير ملائم لها شرب العسل، فالظرفية تصلح للدلالة على تخلف المظروف عن بعض أجزاء الظرف، لأن

(١) التحرير والتنوير: (٢٠٤/١٤).
(٢) تفسير الرازي": (٢٣٥/٢٠).
(٣) تفسير القرطبي": (١٢٣/١٠).
(٤) "وجوه الإعجاز في آيات النحل": (١٥٦-١٥٨) بتصرف.

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

الظرف يكون أوسع من المظروف غالبًا، شبه تخلف المقارنة في بعض الأحوال بقلة كمية المظروف عن سعة الظرف في بعض أحوال الظروف ومظروفاتها وبذلك يبقى تعريف (الناس) على عمومه، في الكلام وبذلك يكون استعارة تبعية في حرف الجر (في).

ولفظ (الناس) المقصود به جنس الناس، لأن الشفاء بالعسل لا يكون لفئة دون أخرى بل يشمل الذكر والأنثى والصغير والكبير...

وعموم التعريف في قوله (للناس) لا يقتضي العموم الشمولي لكل فرد فالشفاء ثابت للعسل في أفراد الناس بحسب اختلاف حاجات الأمزجة إلى الاستشفاء(١).

وتنكير شفاء في سياق الإثبات لا يقتضي العموم فلا يقتضي أنه شفاء من كل داء، كما أن مفاد (في) من الظرفية المجازية لا يقتضي عموم الأحوال ولو كان المراد بالشفاء العموم لدخلت آل على لفظ (الشفاء) حتى يكون أقرب إلى دلالة العموم، يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: «وإذا دخل الخصوص فقد وجب أن يقال حياة، ولا يقال الحياة كما وجب أنه يقال (شفاء) ولا يقال الشفاء في قوله تعالى: ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾ حيث لم يكن شفاء للجميع»(٢).

وإنما التخلف في بعض الأحوال العارضة، ولولا العارض لكانت الأمزجة كلها صالحة للاستشفاء بالعسل(٣).

وقوله (فيه شفاء للناس) لم يقل النظم الكريم بأنه شفاء لكل الناس ولكل داء وفي كل حال، بل لما كان شفاء للبعض ومن بعض الأدواء صلح بأن يوصف بأنه فيه شفاء، والذي يدل على أنه شفاء في الجملة، أنه كل: معجون من المعاجين إلا وتمامه وكماله إنما يحصل بالعجن بالعسل، وأيضًا فالأشربة المتخذة منه في الأمراض عظيمة النفع(٤).

وكونه (شفاء) مع ما ذكر، أدل على القدرة والاختيار من اختلاف الألوان وإنما

---

(١) "التحرير والتنوير": (٢١٠).
(٢) "دلائل الإعجاز": (٢٩١).
(٣) "التحرير والتنوير": (٢٠٩/١٣).
(٤) "الرازي": (٢٣٥/٢٠).

كان ذلك لأنها ذلت لله مطيعة وأكلت من كل الثمرات، حلوها ومرها محبوبها ومكروهها تاركة لشهواتها، فلما ذلت لأمر الله، صار هذا الأكل لله، فصار ذلك شفاء للأسقام، فكذلك إذا ذل العبد لله مطيعًا وترك هواه، صار كلامه شفاء للقلوب السقيمة(١).

ثم تأتي نهاية رحلة النحل بعد إخراجها للعسل وتختتم تلك الرحلة بدعوة ربانية للبشر بقوله (إن في ذلك لأية لقوم يتفكرون)، (إن في ذلك) أي الأمر العظيم من أمرها كله (لأية) وكما أشار في ابتداء الآية إلى غريب الصنع في أمرها، أشار إلى مثل ذلك في الختم بقوله (لقوم يتفكرون) أي في اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة واللطائف الخفية بالبيوت المسدسة، والاهتداء إلى تلك الأجزاء اللطيفة من أطراف الأشجار والأوراق وغير ذلك من الغرائب حيث مناطه بالفكر المبالغ فيه من الأقوياء، تأكيدًا لفخامته، وتعظيمًا لدقته وغرابته في دلالته على تمام العلم وكمال القدرة(٢).

وقد أكدت الجملة بإن ولام التأكيد وذلك لأن خلق النحل على تلك الصورة العجيبة مما يدعو إلى التأمل الشديد في كيفية خلقها، ولما كان هذا التأمل قد غفل عنه البعض جاء بذلك التأكيد ليوضح لنا أن إعجازها لن يظهر إلا بالتعمق في التفكير في معانيها، إذ أنها تبدو سهلة وبسيطة إذا قرأناها قراءة سطحية، ولكن بالتعمق في التفكير في معانيها نجد أنها تتطابق تمامًا، والمعلومات الحديثة التي عرفت عن النحل ولم تكن معروفة وقت نزول القرآن على سيدنا محمد ﷺ، وهذا يظهر بوضوح صدق نبوة سيدنا محمد، كما يوضح أيضًا أنه لو تفكر العلماء المتخصصون كل في مجاله لظهرت أدلة كثيرة محسوسة على وجود الله الخالق العظيم ولظهر أيضًا التوافق التام بين العلم والدين.

ودخل حرف الجر (في) على اسم الإشارة (ذلك) يدل على انبثاق المعجزة من داخل النحلة وخروجها من شيء حسي شاهدوه أمامهم بأم أعينهم ليقطع الحجج ويرد الأعذار.

وقد جاء المسند إليه (لأية) منكرًا وهو اسم إن مؤخر ليفيد تعظيم تلك الآية

(١) "نظم الدرر": (٢٨٦).
(٢) "نظم الدرر": (٢٨٧).

والإشارة إلى أنها علامة وأمارة بينة لا مجال معها لجحد أو إنكار، كما أن دخول لام الابتداء على أية لزيادة التوكيد، وشدة المبالغة في وضوح أمر الإعجاز في تلك الحشرة الصغيرة.

وجاء الجار والمجرور (لقوم) ليفيد اختصاصهم لهذا الأمر وعليهم بالتفكر والتدبر والتأمل في معرفة كيفية خلق هذه النحلة، وقيامها بهذه الأمور العجيبة الغريبة.

ثم ختمت الآية الكريمة بقوله: (لقوم يتفكرون).

نكر لفظة (قوم) وذلك للتبعيض: أي إن الذين يقومون بهذا الأمر بعض من الناس أي قلة قليلة سوف تتدبر وتتفكر في هذه المعجزة البديعة، واختير وصف التفكير هنا لأن الاعتبار بتفصيل ما أجملته الآية في نظام النحل محتاج إلى إعمال فكر دقيق(١).

وكما هو معروف بأن دلالات الأفعال تتغير وتقوم حروف الزيادة بدور مهم في تغيير تلك الدلالة التي توحي بمعان مختلفة فقوله (يتفكرون) على صيغة (تّفعَّل) ولبناء (تفعَّل) معانٍ متعددة منها المبالغة والضرورة والتكثير، فالتعبير عن طريق هذه الدلالة يدل على التدبير العام الواسع الذي يجمع شمل الإنسان والحيوان في الارتزاق به حجة على وحدانيته في الربوبية.

فكان التفكير أنسب الألفاظ من غيرها، لأن التفكير هو أعلى مراتب التأمل والتدبر، لذلك نجد أن هذه الصيغة القرآنية أنسب من غيرها في تأدية المعنى المراد ، ولأن هذه الصيغة تدل على كثرة الآيات الظاهرة في أفعال وخلق النحل من بناء المساكن وتنظيم العمل والممالك ، وإخراج النافع وغير ذلك من الآيات المتعددة في أفعاله وكل فعل يحتاج إلى إعمال فكر.

(١) "التحرير والتنوير": (٢١٠).

ثامناً : الآية الثامنة :

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [فصلت:١٢]

مناسبة الآية الكريمة لسورة فصلت :(١)

بدأت السورة الكريمة بالحديث عن تنزيل الكتاب الكريم، وأشار إلى الصفة الغالبة في هذا التنزيل -صفة الرحمة- فهو رحمة لمن أمنوا به ورحمة كذلك لغيرهم، فهو يبشر المؤمنين العاملين، وينذر المكذبين المسيئين.

وبعد كل هذا يسير الداعية ليكشف لهم عن فظاعة جرمهم الذي ارتكبوه بالشرك والكفر.... يمضي بهم في المجال الكوني العريض مجال السموات والأرض، والكون الذي هم بالقياس إليه شيء ضئيل هزيل، يمضي بهم في هذا المجال، ليكشف لهم عن سلطان الله الذي يكفرون به، في هذا الكون الذي هم جزء منه، ثم ليخرجهم من الزاوية الضيقة الصغيرة، التي ينظرون منها إلى هذه الدعوة، حيث يرون أنفسهم وذواتهم كبيرة ، ويشغلهم النظر إليها، وإلى اختيار محمد ﷺ من دونهم والحرص على مكانتهم ومصالحهم، إلى آخر هذه الاعتبارات الصغيرة ... يشغلهم هذا عن النظر إلى الحقيقة الضخمة التي جاءهم بها محمد ﷺ، وفصلها هذا القرآن، الحقيقة التي تتصل بالسموات والأرض وتتصل بالبشرية كلها، وتتصل بالحق الكبير الذي يتجاوز زمانهم ومكانهم، وتتصل بالكون كله في الصميم حيث يقول سبحانه: (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ .....العزيز العليم) لذا قال تعالى :

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾

(١) بتصرف "في ظلال القرآن". ٣١٠٣

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

بين يدي الآية الكريمة :

شاء الله أن يجعل هذا الكون العجيب كتابًا مفتوحًا يقرؤه كل من يتأمله بعين العقل والفكر والوجدان، ليتضح أمام بصيرته ما فيه من روعة وجمال وبهاء، وما أودعه الله في نظامه الدقيق من قوانين ونواميس تحكمه وتنظمه، وقد جاءت آيات قرآنية فيها إشارات إلى هذه العلوم الكونية منها هذه الآية الكريمة.

وقد «أجملت هذه الآية ما قبلها من قصة الأرض وخلقها وجعل فيها رواسي وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، لأن معنى (أتينا طائعين) يعني أنهما انقادا على وفق مراده سبحانه، وعلى الوجه الذي أراده من خلق الأرض وجعل الرواسي إلى آخره، وهذا من أدق آيات القدرة وتجلياتها وأنه سبحانه إذا قال للشيء كن كان الشيء على الوجه الذي أراده ربنا، وكأنه سبحانه يخلق في الأشياء القدرة على أن تكون على الوجه الذي أراده، وهذا الوجه اشتمال (قالتا أتينا طائعين) على ما قبله، أما أن هذه الكلمة مجملة للمعنى الذي بعدها فإن قوله سبحانه (فقضاهن سبع سموات) وما بعده شرح لما تضمنته كلمة (آتينا) وهذا ظاهر ومعجز»[(١)].

بدأ النظم الكريم للآية بقوله: (فقضاهن) ولم يقل (فقضاها) وذلك للإشارة إلى المعنى الذي صارت إليه وهو أنها (سبع سموات).

وقوله (فقضاهن) القضاء هو: الإيجاد الإبداعي، لأن فيه معنى الإتمام والحكم، فهو يقتضي الابتكار والإسراع .

والضمير في قوله: (فقضاهن) فيه قولان:

الأول: أنه عائد إلى السموات على اعتبار تأنيث لفظها وهذا تفنن[(٢)].

وذلك على المعنى كما قال طائعين ونحوه (أعجاز نخل خاوية) ويجوز أن يكون

---

(١) ألـ حم (غافر – فصلت) دراسة في أسرار البيان / د: محمد أبو موسى ص (٢٤٧-٢٤٨)، مكتبة وهبة ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

(٢) "التحرير والتنوير: (١٢٦).

ضميرًا مبهمًا مفسرًا بسبع سموات، والفرق بين النصيين أن أحدهما على الحال، والثاني على التمييز[١].

والرأي القائل بأنه ضمير مبهم يكون مفسر بقوله (سبع سموات) والمآل واحد، وهذه السبع هي السبع الشداد التي جاءت في سورة النبأ ﴿وبنينا فوقكم سبعًا شدادا وجعلنا سراجًا وهاجا﴾ [النبا:١٢-١٣].

وكان خلق السموات في يومين قبل أربعة الأيام التي خلقت فيها الأرض وما فيها، وقيل أن خلق السماء كان قبل خلق الأرض وهو المناسب لقواعد علم الهيئة، وليس في هذه الآية ما يقتضي ذلك، وإنما كانت مدة خلق السموات السبع أقصر من مدة خلق الأرض مع أن عوالم السماوات أعظم وأكثر لأن الله خلق السموات بكيفية أسرع، فلعل خلق السموات كان بإنفصال بعضها عن بعض ، وكانت سرعة انبثاق بعضها عن بعض معلومة الأحوال مناسبة لما تركبت به من الجواهر، وأما خلق الأرض فالأشبه أنه بطريقة التولد المبطئ لأنها تكونت من العناصر الطبيعية فكان تولد بعضها عن بعض أيضًا (وما يعلم جنود ربك إلا هو).

هذا وقد عطف النظم الكريم قوله (فقضاهن سبع سموات) على (فقال لها وللأرض) بالفاء، وهذه الفاء «ليست مترتبة عليها ترتيبًا زمنيًا لأنه سبحانه قال لهما: بعد تكونهما وبعد صنعهما، وهذا ظاهر في الأرض وهو في السماء لا يعني أنه قال لها ثم قضاها وأنها في حال القول كانت كائنة في التقدير، والذي يبين هذا من غير إشكال أن تكون هذه الفاء مفيدة ترتيب ما بعدها على ما قبلها ترتيب التفسير على المفسر- والتفصيل على المجمل والبيان على المبهم»[٢].

وقد عطف النظم الكريم قوله (وأوحى في كل سماء) على قوله: (فقضاهن).

الوحي هو: الكلام الخفي، ويطلق على حصول المعرفة في نفس من يراد حصولها

(١) آل حم غافر فصلت: ٢٤٧.
(٢) السابق نفسه: ٢٤٨.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

عنده دون قول، ثم يتوسع فيه فيطلق على إلهام الله تعالى المخلوقات لما تتطلبه مما فيه صلاحها كقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨]، أي جبلها على إدراك ذلك وتطلبه، ويطلق على تسخير الله تعالى بعض مخلوقاته لقبول أثر قدرته كقوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة:١-٥].

والوحي في السماء يقع على جميع هذه المعاني من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازاته، فهو أوحى في السموات بتقادير نظم جاذبيتها وتقادير سير كواكبها، وأوحى فيها بخلق الملائكة فيها، وأوحى إلى الملائكة بما يتلقونه من الأمر بما يعملون.

قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ إلى ﴿وهم بأمره يعملون﴾ [الأنبياء: ٢٠-٢٧]

والملاحظ من تتبع الفعل (أوحى) ماضيًا ومضارعًا في سياقاته المختلفة في القرآن الكريم، أنه قد تعدي بالحرف (إلى) في جميع مواضعه البالغة (٧٢) موضعًا[(١)].

ما عدا أربعة مواضع: أثنين منها لم يذكر فيها هذا الحرف مطلقًا في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١].

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤].

والثالث: تعدي الفعل (أوحى) بحرف الجر (في) في قوله: (فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها).

والرابع: تعدى باللازم في قوله تعالى: (بأن ربك أوحى لها) ومن يتأمل في أسرار المخالفة في الموضعين الثالث والرابع، يجد أن القرآن الكريم في جميع مواضعه الثماني والستين التي يتعدى منها الفعل بإلي كان الموحى إليه كائنات حية عاقلة: رسلاً أو ملائكة أو حواريين أو أم موسى أو أولياء الشياطين أو شياطين الإنس والجن أو كائنات صغيرة عاقلة مثل النحل.

---

(١) "المعجم المفهرس": (٩١٤-٩١٥).

حيث تعدى الفعل أوحى إلى الأحياء عقلاء أو غير عقلاء أنبياء وغير أنبياء بالحرف إلى، وهذا اطراد واضح في كل المواضع، التي ذكرت فيها(إلى) سواء كان الموحى الرحمن أو كان الموحى الشيطان.

وحين كان الموحى إليه الجمادات فقد تعدى الفعل بحرف الوعاء (في) مع السموات وحرف "اللام" مع الأرض.

واختصاص السموات بحرف الوعاء (في) لأن السياق يقتضي الظرفية التي تدل على التمكن والثبوت، أي أنه سبحانه لما خلق السموات في يومين جعل في كل سماء منه هذه السموات أمرها فيها ثابتًا متمكنًا يحتوي عليها احتواء الظرف على المظروف مذ خلقها الله إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات، وقد اقتضى السياق التعبير بذلك الحرف، لآن الحديث في هذا الموضع عن السموات كان في بداية خلقها، وما صنع الله بها، وشأن المخلوق لأول مرة، وأن يصيره الله ﷻ على ناموس ثابت مستقر لا يتغير ولا يتبدل، ومن ثم كان هذا الحرف ألصق بهذا المعنى وذاك السياق.

«وللإشارة إلى أن الوحي كان في كل سماء، ولم يكن إلى كل سماء وأنه سبحانه بث في كل سماء أمرها، وأودع فيها وقذف في قلبها وفيه إشارة إلى أن لكل سماء أمرًا وأن خلقه في سمائه لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون»[1].

وقوله: (أمرها) بمعنى شأنها، وهو يصدق بكل ما هو من ملابساتها من سكانها وكواكبها وتماسك جرمها والجاذبية بينها، وبين ما يجاورها، وذلك مقابل قوله في خلق الأرض ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ [فصلت:١].

فالموحي إليه محذوف يدل عليه المقام والسياق وهم ملائكة كل سماء والتقدير ـ والله أعلم ـ وأوحى في كل سماء إلى أهلها أمرها ، أي أمر حفظها وتكاليف أعمالهم التي

(١) آل حم غافر – فصلت: (٢٤٨).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

يقومون بها ، والسماء مكان للموحى إليه .

وبالتأمل نجده سبحانه قد جعل الذي في السماء وحي أمر والذي في الأرض تقدير أقوات، وما ذلك إلا لأن المقام مقام امتثال للأوامر، ومقام الطاعة دون عصيان، وعليه فإن السماء بما شملت من صفات، وما احتوت من مخلوقات أكثر امتثالاً وطاعة من الأرض، لأن السماء في دوام حركتها على نهج واحد لا يختلف، تشبه حيوانًا مطيعًا لله تعالى بخلاف الأرض فإنها مختلفة الأحوال، تارة تكون في السكون وأخرى في الحركة المضطربة، كذلك أهل السماء ليس لهم إلا الطاعة.

قال تعالى: (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون).

وبذلك ناسب سبحانه كل عالم بما يلزمه وما يصلح له من الأمور والتقدير.

قوله (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظًا) عطف قوله (وزينا ...) على قوله (وأوحى في كل سماء أمرها) لما بينهما من المناسبة التامة، ولو دققنا النظر في هذه الآية الكريمة وما سبقها من الآيات، نجد أنفسنا أمام جمل خبرية تتابعت وتوالت وقد أخذت بعضها بحجز بعض وانتظمت انتظامًا فريدًا، يبين لنا مدى القدرة والإبداع في خلق السموات والأرض، حيث عطف النظم الكريم جملة (فقضاهن) على جملة (فقال لها) وجملة (وأوحى) معطوفة على قوله (فقضاهن) وجملة (وزينا) معطوفة على جملة (وأوحى) وكل هذه الجمل جمل خبرية اتحدت في المسند إليه وهو الله سبحانه، وكانت أفعالاً ماضية مما يجعلها تتماثل في المسند، وليس هناك مانع من العطف وذلك يعرف عند البلاغيين بالتوسط بين الكمالين.

ومما زاد من حسن الوصل وجماله، ما أحدثته الجمل من إيقاع وتلاؤم صوتي فريد، فهذه الجمل بأفعالها الماضية جاءت لتفصيل مظاهر القدرة والإبداع ومجيئها ماضية يدل على تحققها واستمرارها، ويشعر بظهورها لمن أراد أن يتأمل.

ولنتأمل «الفرق الظاهر بين الجملتين المقترنتين (وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح) الجملة الأولى أمرغيبي والجملة الثانية وصف لظاهر تتعلق به

العيون في كل ليلة، وكيف ربط هذا الاقتران بين الغيب والمشاهد وكيف أومأ إلى دلالة الشهود على الغيب، ثم لاحظ الربط بين الجمل وطريقة التكوين تجد قوله (وزينا السماء الدنيا بمصابيح) والتي قبلها من تمام معنى (فقضاهن) وقوله (فقضاهن) بيان لقوله (فقال لها وللأرض) وقوله (فقال لها وللأرض) مرتب على قوله (أستوى إلى السماء)»[١].

وإذا أمعنا النظر في قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾

بدأت الآية الكريمة بإخبار المخاطبين باستخدام ضمير الغيبة (فقضاهن) و(وأوحى) ثم تحول النسق حيث أصبح فيه عدول يتمثل في قوله : (وزينا السماء الدنيا) حيث أسند فعل (التزيين) إلى الضمير البارز، والضمير البارز من باب التكلم، ثم عدل عن ذلك مرة أخرى إلى الإخبار بطريق الغيبة (ذلك تقدير) ففي الآية الكريمة انتقال من الغيبة إلى الحضور ثم انتقال من الحضور إلى الغيبة، وهذا العدول أو الالتفات له من النكت والأسرار الجمة التي تعطي النظم شكلاً جديدًا ومعنى آخر لا يتوصل إليه إلا بإدامة الفكر[٢].

وذلك كله يفيد التجديد لنشاط السامعين لطول استعمال طريق الغيبة ابتداءً من قوله (بالذي خلق الأرض في يومين) مع إظهار العناية بتخصيص هذا الصنع الذي ينفع الناس دينًا ودنيا وهو خلق النجوم الدقيقة والشهب بتخصيصه بالذكر من بين عموم وأوحى في كل سماء أمرها، فما السماء الدنيا إلا من جملة السماوات، وما النجوم والشهب إلا من جملة أمرها[٣].

«وأما توجيه الالتفات في الآية الكريمة ومن خلال الزاوية التي ننظر إليها فهو أن مقام الخطاب الأول يتحدث عن خلق مخلوقات السماء، وهذه الأمور غيبية غير مرئية،

(١) "آل حم غافر – فصلت": (٣٤٩-٣٥٠).
(٢) "أسلوب الالتفات في البلاغة العربية":د/ حسن طبل ص: (٦٦-٧٧).
(٣) "التحرير والتنوير": (٢٥١/٢٤).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

فوافق خطاب الغيبة للمقام، كذلك مثل هذا الأمر الغيبي منه استحضار لعظمة الخالق وتركيز الوعي.

أما مقام الخطاب الثاني فيتحدث عن الكواكب والنجوم وكل المجرات السماوية التي توصل إليها الإنسان أو سيتوصل بعد حين، وهذه المخلوقات مرئية من قبل البشر، لذا تم العدول عن الغيبة للتكلم وكأن المخاطبين يمكن لهم أن يشاهدوا حقيقة قول المتكلم.

ومدار الحديث في الخطاب الثالث يدور حول كل الأمور التي خلقها الله وتم ذكرها في الآيات السابقة، حيث إن الخالق تبارك وتعالى غيبي وغير مرئي من قبل أحد، والكثير من المخلوقات التي تم ذكرها غيبية وغير مرئية كان الخطاب بصيغة الغيبة، وأخيرًا إن ما بعد اسم الإشارة الدال على الغيبة بوحي بحتمية الثناء لمن أوجد هذه المخلوقات وهذا المعنى يتناغم مع معنى الآية الكريمة»[(١)].

«وهذا فيه ما فيه من التعريض بهؤلاء الذين ضلت عقولهم، فتردت سفاهتهم في هوة الشرك والغواية، فكأن الآية الكريمة بتضمنها هذا العدول في ذلك السياق تجسد المفارقة الواضحة بين تلك الجمادات التي لا تملك إلا الطاعة والانقياد المطلق لجبروت الخالق ﷻ، وبين هؤلاء الملاحدة من بني البشر (العقلاء) الذين تعطلت عقولهم فانغمسوا في مباءة المعصية بين إشراك به واقع، وإعراض عن تذكيرهم بآياته ودلائل قدرته متوقع»[(٢)].

(ذلك تقدير العزيز العليم)

الإشارة في قوله تعالى (ذلك)، أقرب مشار إليه في الآية هو الحفظ والزينة، ويدخل ما بعد الإشارة الأولى في قوله (ذلك رب العالمين) والذي قبلها كذلك ومن خلق الأرض وما اختصت به، وقضية خلق السموات وما تلاها وصحت الإشارة إليها جميعًا، لكونها معطوفات فيكون كل ما تقدم من أثار تقديره سبحانه، وذلك على توسع في مفهوم

(١) "أسلوب الالتفات في البلاغة العربية": (٦٦-٦٧).
(٢) السابق نفسه: (٦٥).

التقدير[١].

كما أن هذه الإشارة دالة على تميز هذه الآيات في بابها وبيان المقصود منها، ولام البعد هذه دالة على سمو هذه الآيات ورفعة جلالها وقوة ذهابها في بيان المقصود منها[٢].

وقد بينت هذه الجملة على القطع والاستئناف ... والقطع هنا يعني أن هذه الجملة قطعت امتداد المعنى الذي قبلها وانتقلت إلى شيء وراءه، والمعنى الذي قبلها بدأ بقوله تعالى: (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين) وما فيها من أدلة باهرة قاطعة قد وصلت إلى نهايتها التي بدأت بخلق الأرض في يومين وانتهت بزينة السماء بالكواكب وحفظها، ومراجعة هذه الجمل من المعاني تبين أنها بلغت من مقصودها غاية ما يبلغه بيان، وأن الذي وراءها ذلك تقدير العزيز العليم، وأما الاستئناف فنرى الفاصلة تركز بطريقة فذة المقصود من الآيات السابقة وهو الجلاء البين بالذي وراء كل ذلك وهو الله الذي خلق الأرض ثم استوى إلى السماء والذي لا يجوز أن يكون لها أنداد[٣].

وقد اشتملت الفاصلة (ذلك تقدير العزيز العليم) على مضمون يلفت إلى مضمون الآية التي انتهت بها، فتلخصه وتمكنه في النفس، فقد جاءت متمكنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها غير نافرة ولا قلقة، متعلقًا معناها بمعنى الكلام كله تعلقًا تامًا بحيث لو حذفت من الكلام لأختل المعنى واضطرب الفهم[٤].

وقد جاءت الفاصلة مشتملة على اسمين من أسمائه سبحانه (العزيز) و (العليم)، فالعزيز (معز) فعيل بمعنى مفعل؛ والعزيز اسم من أسماء الله الحسنى، وهو المنيع الذي لا يغلب والعز قد يكون بمعنى الغلبة، يقال: عز يعُز بضم العين، وقد

(١) "تفسير سورة فصلت": (١١٤).
(٢) "آل حم غافر – فصلت"د/ محمد أبو موسى ص: (٣٥١).
(٣) "آل حم غافر – فصلت": (٣٥٠).
(٤) "سورة فصلت دراسة بيانية" / محمد صالح محمد ال طياش . ٨٧ / ط١٤٢٢ هـ

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

يكون بمعنى الشدة والقوة يقال: عز يعز بكسر العين، فتناول معنى العزيز على هذا أنه لا يعادله شيء وأنه لا مثيل له(١).

فمن خلق السموات والنجوم لا يستطيع أحد أن يغلبه في ذلك والذي لا يغلب لابد أن يكون قويًا شديدًا، فالمبالغة آتية من النوعية التي خلقها الله ﷻ ونفاستها التي هي بدروها أكبر دليل على وحدانيته ﷻ.

(العليم) تضمن الاسم صفة العلم وهو العلم الشامل المحيط بما كان وبما سيكون وما هو كائن، فهو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق، وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم(٢).

وقد فرق العلماء بين (العالم والعلام والعليم) قائلين كل من فعل فعلاً قل أو كثر ضعف أو قوى يجوز أن يشتق له منه اسم فاعل (عالم) فإذا احتيج إلى أن يميز بين الفعل الذي يظهر من الفاعل مرة واحدة وبين الذي يظهر منه غالبًا أو الذي يظهر منه على سبيل الخلق والعادة، وجب العدول إلى أوزان أخرى (علام - عليم) فعلام تفيد كثرة المتعلقات، وعليم: تفيد ثبوت الصفة ورسوخها، فلا تستعمل إلا عند قصد تأكيد الفعل(٣).

فالمبالغة آتية من الإشارة إلى الإحاطة بأحوال كل المخلوقات من الإنس والجن والجماد والحيوان.

فالعزة والعلم من أهم خصائص الربوبية وهما أظهر الصفات في خلق السموات والأرض وقد أشار إلى ذلك الإمام الطبري بقوله: (ذلك تقدير العزيز العليم) يقول تعالى ذكره: هذا الذي وصفت لكم من خلقي السماء والأرض وما فيهما، وتزييني السماء الدنيا بزينة الكواكب على ما بينت تقدير العزيز العليم بسرائر عباده وعلانيتهم، وتدبيرهم على

(١) "الأسماء والصفات للبيهقي": (٥١)، "اللسان": (٣٧٤/٥) مادة عزز.
(٢) "الأسماء والصفات للبيهقي": (٦٢).
(٣) "أسماء الله الحسنى دراسة في البينة والدلالة": (٦٦)/ عمر أحمد مختار ط١القاهرة عالم الكتب.

ما فيه صلاحهم[١].

فهو العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبة وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم وبمن أمن به ومن لا يؤمن به، وهو العزيز في ملكه القادر القاهر الذي لا يلحقه عجز ولا يعتريه سهو ولا جهل[٢].

ومن هنا نعلم كيف تأتي الفاصلة في القرآن متمكنة في موضعها مستقرة فيه، مناسبة كل المناسبة للآية إن حذفت اضطرب المعنى وقلق، فالفاصلة القرآنية جاءت لتلبي حاجة ملحة لها في اللفظ والمعنى.

(١) "جامع البيان": (٢/٤٤٠) الإمام الطبري.
(٢) "ابن كثير": (٤/١١٣)، "الدرر المصون": (١٢/٣٧٨).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

تاسعاً : الآية التاسعة :

سورة الزلزلة

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة:١-٨].

مناسبة السورة لما قبلها:

ذكر في المناسبة بين هذه السورة وآخر السورة المتقدمة وجوهًا عدة:

١) أنه تعالى لما قال: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البينة:٨] فكأن المكلف قال: ومتى يكون ذلك يارب؟ فقال: (إذا زلزلت الأرض زلزالها) فالعالمون كلهم يكونون في الخوف، وأنت في ذلك اليوم تنال جزاءك وتكون آمنًا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل:٨٩].

٢) أنها تعالى لما ذكر في السورة المتقدمة وعد الكافر ووعد المؤمن، أراد أن يزيد في وعيد الكافر، فقال أجازيه حين يقول الكافر السابق ذكره: "ما للآرض تزلزل ..." فكان الجواب: (إذا زلزلت الأرض زلزالها ....)[(١)].

ثم جمع بينهما في آخر السورة فذكر الذرة من الخير والشر.

في رحاب الدراسة التحليلية للسورة

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ٨﴾

بدأ النظم الكريم بخطاب موجه لجميع الخلائق من خلال لوحة تعبيرية رائعة ترسم مشهداً عظيماً تقشعر له الأبدان وتذهب عنده العقول، إنه مشهد من مشاهد يوم القيامة، وما يصحبه من حركة عنيفة (إذا زلزلت....) أي إذا تحركت الأرض حركة

(١) "تفسير الرازي": (٣٢/٢٥٣).

شديدة لقيام الساعة[١].

ولنقل هذا المشهد المفزع والمروع بصورة جلية، اختار سبحانه الألفاظ المعبرة عن هذا اليوم المشهود، ألفاظ بالغة الإثارة، قوية الوقع إما بعنفها كالزلزلة، والرج والبعثرة والانتشار...

وإما بدقتها كمثقال الذرة، والهباء والعهن المنفوش... «فالقرآن الكريم يتأنق في اختيار الألفاظ، ويستخدم كلا حيث يؤدي معناه في دقة فائقة تكاد تؤمن معها بأن هذا المكان إنما خلقت له هذه اللفظة، دون سواها، ولذلك لا تجد في القرآن ترادفًا بل كل كلمة تحمل إليك معنى جديدًا»[٢].

بداية المشهد

(إذا زلزلت الأرض زلزالها)

بداية قوية منذ اللحظة الأولى، فها هي ذي صورة للهول تتجاوز الإنسان ونفسه إلى الطبيعة كلها، والإنسان من جملتها (إذا زلزلت الأرض زلزالها) فقد استهل النظم الكريم السورة بـ (إذا) الشرطية وذلك لعدة أسباب:

١) أنهم كانوا يسألون متى الساعة؟ فقال: (إذا زلزلت الأرض) كأنه تعالى قال: لا سبيل إلى تعيينه بحسب وقته، ولكني أعينه بحسب علاماته.

٢) أنه تعالى أراد أن يخبر المكلف بأن الأرض تحدث، وكأن الأرض تشكو من العصاة، وتشكر من أطاع الله، وتشهد يوم القيامة، مع أنها في هذه الساعة جماد، فكأنه قيل: متى يكون ذلك؟ فقال: (إذا زلزلت الأرض...)[٣].

٣) يرى البعض أن السورة افتتحت بـ(إذا) تشويقًا لمتعلق الظرف، إذ ليس المقصود من ذلك توقيت صدور الناس أشتاتًا ليروا أعمالهم، بل الغرض هو الإخبار عن

(١) "تفسير البغوي": (٥١٥) دار المعرفة، بيروت، لبنان الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
(٢) "من بلاغة القرآن": (٥٧) د/ أحمد بدوي نهضة مصر، بدون.
(٣) "التفسير الكبير": (٢٥٣/٣٢).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

وقوع البعث منزلة الشيء المحقق المفرغ منه، فالذي يهم الناس هو معرفة وقته وأشراطه، وبذلك يكون التوقيت كناية عن تحقيق الوقوع[١].

ولعل هذا الرأي هو الأقرب للصواب، وذلك لأنه لما كان الزلزال واقعاً لا محالة مقطوعًا به، عبر بـ (إذا) دون (إن) وذلك لأن (إن) تكون في الجائز، و(إذا) في المقطوع به.

فضلاً عما دلت عليه (إذا) من معنى المباغتة، إذ أن اليوم الآخر يأتي بغتة وذلك أدخل في الترهيب[٢] الذي أوحت به هذه السورة.

وهذه سنة الله في الكون، فعند التعبير عن مشهد من مشاهد القيامة أو عن أمر تكرر من مظاهر الطبيعة أو عن مصير محتوم، أو ما قارب هذه الأمور فالأداء المفضلة هي (إذا) المؤذنة بتحقيق شرطها وجوابها.

والقيمة البيانية لهذا المطلع الشرطي التي من أجلها اثر القرآن افتتاح هذه السور بها هي أن الأسلوب الشرطي يمتاز بربطه بين أجزاء الكلام ربطًا ملاحظًا فيه ترتيب المسبب على السبب، فإذا ذكرت أداة الشرط وأردفت بفعل الشرط، تشوقت النفس إلى ذكر ما سيكون، فعند ذكر الجواب بعد هذه الإثارة وهذا التشويق، تمكن أيما تمكن.

(زلزلت) أي حركت تحريكًا شديدًا حتى يخيل للناس أنها خرجت من حيزها[٣]، ولأن هذا أدخل في التهويل، كأنه تعالى يقول: إن الجماد ليضطرب لأوائل القيامة، أما آن لك أن تضطرب وتتيقظ من غفلتك[٤].

واختار النظم الكريم الفعل (زلزل) دون (زل) لأن للحركة المعتادة، وزلزل للحركة الشديدة العظيمة، لما فيه من معنى التكرير، وهو كالصرصر في الريح، ولأجل شدة

(١) "التحرير والتنوير": (٤٩١/٣٠).
(٢) "التفسير الكبير للرازي": (٢٥٣/٣٢).
(٣) "التحرير والتنوير": (٤٩٠).
(٤) "التفسير الكبير": (٢٥٥).

هذه الحركة وصفها سبحانه بالعظم[١] فقال: ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ [الحج:١]، فلما أراد سبحانه وتعالى التعبير عن شدة الفعل ضاعفه للدلالة بالتضعيف على شدته[٢].

«فكلمة زلزلت مكونة من (زل - زل) وهذا المقطع (زل) يثير في النفس حركةً عنيفةً واضطراباً شديداً، وكعادة النظم القرآني عند الحديث عن يوم القيامة ومشاهده، وما يتعلق به، نجده يكثر من التعبير بالبناء للمجهول مثل قوله: (زلزلت) والسبب في بناء الفعل هنا للمجهول وإسناد الفعل لفاعله، هو أن الفاعل معلوم وهو الله سبحانه وتعالى، فلا ضرورة من التصريح به وهو معلوم»[٣].

ولأن عباده ألفوا منه ـ سبحانه ـ صفات رحمته وفضله ، ولم يألفوا ما يكون في هذا اليوم من صفات جبروته وعدله ، فجعل نشر رحمته في النسبة إليه في اللفظ ظاهرة ، وجعل صفات أخذه وجبروته وعدله مستتره في اللفظ ، فبنى الفعل للمفعول عند التعبير عما لم يألفوه منه سبحانه ، حتى لا ينقطع رجاء المؤمن فيه عند ظهور جبروته وعدله .

وقيل «إنه قد استغنى عن الفاعل لتوجيه فكر الإنسان إلى الحدث -أي ما تتعرض له الأرض في ذلك اليوم- تركيزًا للاهتمام به -حتى كأن الحديث- الزلزلة يتم تلقائيًا»[٤].

فالأرض تزلزل طواعية، فالمقصود هنا هو الحدث، لأن محدثه معلوم، وهو الله سبحانه.

ومجيء الفعل ماضيًا، تقرير لأنه حادث فعلاً، وقد صدر بـ (إذا)، فصرفته إلى المستقبل دون أن يفقد التعبير أثره الذي يوحي به استعمال الماضي، بدلاً من المستقبل الصريح، على أن المباغتة في (إذا) لها أثرها البياني في هذا الموقف »[٥].

وقيل إن هناك عاملاً مضمرًا في (إذا) تقديره: اذكر، وقيل تحشرون أي يوم تزلزل

(١) "التفسير الكبير": (٢٥٥).
(٢) "التحرير والتنوير": (٣٠/٤١٠).
(٣) "التحرير والتنوير": (٣٠/٤٩١).
(٤) "التفسير البيان للقرآن": (١/٧١-٧٢) د/ عائشة عبد الرحمن.
(٥) "التفسير البياني للقرآن الكريم": (٨١).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

الأرض زلزالها تحشرون[١].

فالسر البياني وراء كل هذا، ولأن مناط القوة في التعبير هو بغتة المفاجأة، وتأكيد الحدث، وصرف الذهن إليه، ولا شيء من ذلك يتعلق بما شغلوا به من تأويل وتقدير[٢].

ولما كان المخوف الزلزلة ولو لم يعلم فاعلها، وكان البناء للمجهول يدل على سهولة الفعل ويسره، بني للمفعول، ولم يكتف النظم الكريم بذلك، بل عظم هذا الزلزال وهوله بإبهامه لتذهب النفس فيه كل مذهب، فقال كاسرًا الزاي لأنه مصدر، ولو فتحها لكان اسمًا للحركة[٣].

والمصدرية أولى بالمقام، لما فيها من تأكيد يتلاءم مع السياق، ويؤيده تعيين المصدرية في الآية الأخرى التي استعمل فيها القرآن هذه الصيغة، قوله: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]

ولم يتوقف النظم الكريم عند بناء الفعل للمجهول، بل تم إسناده لضمير الغائب في قوله (إذا زلزلت الأرض زلزالها) فإضافة الزلزال إلى ضمير الأرض، متسق مع التلقائية الملحوظة في هذه الآية وما بعدها من إخراج الأرض أثقالها وتحدثها أخبارها، بالإضافة إلى «إفادة تمكنه منها وتكرره حتى كأنه عرف بنسبته إليها لكثرة اتصاله بها»[٤].

ونلحظ في قوله (زلزلت، زلزالها) استخدام معجز للألفاظ حيث اختار سبحانه «لكل حاله مرادة ألفاظها الخاصة التي لا يمكن أن تستبدل بغيرها، فجاء كل لفظ متناسبًا مع صورته الذهنية من وجه، ودلالته السمعية من وجه أخر»[٥].

ولما أراد سبحانه أن يصف لنا هول المشهد اختار حرفًا له القدرة على التعبير عن

(١) "تفسير البحر المحيط": (٨/٥٠٠).
(٢) "التفسير البيان للقرآن الكريم": (٨١).
(٣) "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور": (٥٠٤).
(٤) "التحرير والتنوير": (٤٩).
(٥) "الصوت اللغوي في القرآن": (١٦٣)، د/ محمد حسين الصغير، دار المؤرخ بيروت – لبنان ط١/٢٠٠٠.

المعنى المراد من خلال وروده في سياقه، وقد ارتكز عليه ارتكازًا شديدًا وهو حرف (الألف) فهو صوت يعطي لصورة الزلزال الشديد صوتًا مدويًا مقيد بعيد وغير معهود، فليس كأي زلزال، وإنما هو زلزال من نوع خاص ليوم خاص، زلزال لا حد له ولا قيد.... ولو كانت الفاصلة (إذا زلزلت الأرض الزال) دون الألف لكان هذا الزلزال مقيدًا بحدود ومعهوداً بصفات مميزة عندنا، ولما فيه من ميزة الجهر بالأصوات المجهورة بطبيعتها تضفي على المعنى قوة وشدة ووضوحاً لدى السامعين، فتجعل المتلقي يتصور من خلالها تلك النهاية التي لا يمكن أن يحدها حد، ولو استخدم حرف غيره لما دل على ذلك المعنى، ولم تتحقق تلك الدرجة من الوضوح السمعي عند المتلقي التي اتضحت مع حرف الألف فهو «يمثل أعلى درجات الوضوح السمعي من بين أصوات اللغة العربية لما فيه من حزم صوتية عالية»(١).

ولا يخفى ما بين (زلزلت) و (زلزالها) من جناس اشتقاق حيث زيدت الكلمة الثانية عن الأولى بحرف الألف، وهما من أصل واحد، وزيادة حرف الألف أعطى زيادة حركية للصورة أوسع مما كانت عليه في اللفظة الأولى (زلزل) فالأولى تعطي إحساساً باضطراب الأرض ولكن بصورة اقل شدة مما هي عليه اللفظة الثانية.

وبهذا فقد أحدثت اللفظتان شعورًا مخيفًا يثير الرهبة والرعب في نفس السامع وهذا ما يهدف إليه النص.

إضافة إلى مجيء لفظ (زلزل) مبنياً للمجهول والصيغة الثانية جاءت اسمًا، ويبدو أن مجيء هذه الصنع بهذا الشكل لها أغراض عدة، فمجيء زلزل مبنياً للمجهول جعل الصورة تتسم بالغموض ، وعدم الإفصاح عن المسبب بهذا الإنهيار الذي أصاب الأرض منه زاد الأمر غموضًا وتعقيدًا ، فعمق في نفس المتلقي صورة الاضطراب وهذا الجناس «لا يتحقق إلا بالخداع عن الفائدة وقد أعطاها، وبالإبهام في أنه لم يزد على

(١) "منهج النقد الصوتي في تحليل الخطاب الشعري": (٦٩) د/ قاسم البرسيم، دار الكنوز الذهنية ط١/ ٢٠٠٠م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

المراد وقد زاد ومعنى هذا إن الجناس أمر نفسي ومسألة شعورية»[١].

ثم أردف صيغة المبني للمجهول (زلزل) بالاسم (زلزالها) بصيغة الاسم لأن الزلزال أمر ثابت محتوم في نفس المتلقي وذهنه لما تتصف به الأسماء من خاصية الثبوت والدوام.

ولما كان الاضطراب العظيم يكشف عن الخفي في المضطرب قال (وأخرجت الأرض أثقالها) فقد (جعل سبحانه) الأرض هنا فاعله، وهي جماد، مضيًا في تقرير مطاوعتها، وكونها مسخرة لمثل هذا، والسياق ملتئم مع الآية قبلها من حيث تركيز الاهتمام على الحدث، دون شغل للسامع بمصدره أو محدثه[٢].

«وإخراج الأرض أثقالها ناشئ عن انشقاق سطحها، فتقذف ما فيها من معادن ومياه وصخر، وذلك من تكرار الانفجارات الناشئة عن اضطراب داخل طبقاتها وانقلاب أعاليها أسافل والعكس»[٣].

ونلحظ إسناد الفعل (أخرجت) إلى غير فاعله الحقيقي لأن الأرض لا تخرج الأثقال[٤] وإنما يخرجها الله عزوجل.

فهو هنا مجاز عقلي علاقته المكانية والذي نوع هذا الأسناد هو أن الأرض مكان لهذا الفعل وكأن هذا الأسناد تقرير لتلقائية الحدث، وكأنه في غير حاجة إلى مُحدِث وتركيزوتقرير للانتباه منه.

وقد أظهر في مقام الإضمار (وأخرجت الأرض) لذكرها سابقًا وذلك لقصد التهويل وتحقيقًا للعموم[٥] أي كل الأرض.

---

(١) "بناء الصورة الفنية في البيان العربي": (١١٥)، كامل حسن البصير، المجمع العلمي العراقي بغداد ١٤٠٧م/١٩٨٧م.
(٢) "التفسير البياني": (٨٤) عائشة عبد الرحمن.
(٣) "التحرير والتنوير": (٣٠/٤٩٠).
(٤) "بديع القرآن": (١٧٦).
(٥) "التحرير والتنوير": (٣٠/٤٩٠).

ومن العلماء من يرى سبب العدول هو زيادة التقرير[١] ومنهم من قال للإيحاء إلى تبدل الأرض غير الأرض[٢].

وأيًا كان الراي الراجح فجميع الآراء كلها تتفق مع السياق، وتكمل بعضها البعض، فالنظم الكريم نراه دومًا يعبر بخلاف الظاهر ويوظفه توظيفًا بارعًا يتلاءم مع الوضع وحاجة السياق وهذا واضح من بداية السورة الكريمة إلى نهايتها.

ولما كان الإنسان إذا رأى هذا عجب له، ولم يدرك سببه لأنه أمر عظيم فظيع يبهر عقله، ويضيق عنه ذرعه، عبر عنه بقوله: (وقال الإنسان مالها)، السؤال واضح وصريح فيه معنى العجب والدهشة والقلق والترقب، ولا زال التعبير على خلاف الظاهر حيث، ذهب المفسرون في تفسير معنى الاستفهام على عدة وجوه، منهم من قال أنه دل على التعجب[٣]، ومنهم من قال أن الاستفهام هنا يدل على الاستعظام[٤]، فالتعجب من الكافر والاستعظام من المؤمن، وبعضهم حملة على الاستغراب[٥] فالإنسان يستغرب ما حدث للأرض من زلزال، حيث قلبت موازينها في ثوان، ومنهم من قال بأنه للإنكار: أي إن الإنسان يستنكر أمر الأرض، فبعد ما كانت قارة ساكنة وهو مستقر على ظهرها، تقلبت حالها، فصارت متحركة مضطربة بعد أن جاءها أمر الله، فألقت ما فيها وما في جوفها من الأموات الأولين والآخرين[٦].

وجميع المعاني التي ذكرها المفسرون مقبولة عدا كون الاستفهام للإنكار، لأن المشهد وقع لا محالة فلا داعي لإنكاره، بعد تلك الإنذارات العديدة الموجهة من قبل رب العالمين عن طريق الأنبياء والمرسلين، فالمشهد جلل مشهد يمثل الانقلاب الكوني وهو

---

(١) "فتح البيان في مقاصد القرآن": (٤١٩/١)، "صفوة التفاسير": (٥٩٣/٣).
(٢) "تفسير أبي السعود": (٢٢٥/٩).
(٣) "الكشاف": (٧٨٤/٤)، "تفسير التعالبي": (٤٣٤/٢)، "مجمع البيان": (٤٧٤/١٠).
(٤) "التفسير الكبير": (٥٩/٣١)، "البحر المحيط": (٥٠٦٨).
(٥) "صفوة البيان لمعاني القرآن": (٥٦٠/٢).
(٦) "التسهيل لعلوم التنزيل": (٢١٣/٣٠).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

مجسد في رؤية الأعمال التي من أجلها انقلب هذا الكون، واختل نظامه واضطرب، وكأنه تعالى أراد أن يخبر المكلف أن الأرض تحدث وتشهد يوم القيامة مع أنها في هذه الساعة جماد، فكأنها قيل: متى يكون ذلك؟ فقال: (إذا زلزلت الأرض).

فالاستفهام هنا لا يحتاج إلى جواب، بل هو سؤال يصدر من الخائف المرعوب من هول الموقف، «فبخروج الاستفهام لمثل هذه المعاني يعطي التعبير مزيدًا من السحر والجمال، وتعطي الكلام حيوية، وتزيد الإقناع والتأثير به فتثير السامع وتجذب الانتباه»(١).

وقوله: (وقال الإنسان مالها) أي مالها تزلزل هذه الزلزلة الشديدة، ولفظت ما في بطنها، وذلك إما عند النفخة الأولى حين تلفظ ما فيها من الكنوز والدفائن، أو عند النفخة الثانية حين تلفظ ما فيها من الأموات(٢).

والتعريف في الإنسان تعريف الجنس المفيد للاستغراق، أي وقال الناس مالها، أي الناس الذين هم أحياء ففزعوا وقال بعضهم لبعض، أو قال كل أحد في نفسه حتى استوى في ذلك الجبان والشجاع، والطائش والحكيم، لأنه زلزال تجاوز الحد الذي يصبر على مثله الصبور(٣).

وقوله: «(مالها) استفهام عن الشيء ثبت للأرض ولزمها لأن اللام تفيد الاختصاص، أي ما للأرض في هذا الزلزال، أو ما لها زلزلت هذا الزلزال، أي ماذا ستكون عاقبته ؟

﴿يؤمئذ تحدث أخبارها﴾

«أي يوم يحدث ذلك، تحدث الأرض أخبارها، وسر التعبير بـ (يومئذ) هنا أنه لفت قوي يستحضر مع السامع ما مضى من وصف اليوم، فلا يتابع ما بعد (يؤمئذ)

(١) "من بلاغة النظم العربي": (١٠٣/٢) بتصرف.
(٢) "التفسير الكبير": (٢٥٥/٣٢).
(٣) "التحرير والتنوير": (٤٩١/٣٠-٤٩٢).

منصرفًا عما قبلها، مستقلاً عنه»[١].

وتحدث الأرض وقف أمامه المفسرون كثيرًا ولهم فيه عدة آراء منها:

١) قول أبي مُسلم يؤمئذ يتبين لكل أحد جزاء عمله فكأنها حدثت بذلك، كقولك الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة فكذا انتقاض الأرض بسبب الزلزلة تُحدث أن الدنيا قد انقضت وأن الأخرة قد أقبلت.

٢) قول الجمهور: أن الله تعالى يجعل الأرض حيوانًا عاقلاً ناطقًا ويعرفها جميع ما عمل أهلها، فحينئذ تشهد لمن أطاع وعلى من عصى .

٣) قول المعتزلة:

إن الكلام يجوز خلقه في الجماد، فلا يبعد أن يخلق الله تعالى في الأرض حال كونها جمادًا أصواتًا مقطعة مخصوصة فيكون المتكلم والشاهد على هذا التقدير هو الله تعالى[٢].

وذهب آخرون إلى أن التحدث حقيقة لا مجاز ففي سنن ابن ماجه: (تقول الأرض يوم القيامة يارب هذا ما استودعتني)، وعن ابن مسعود: «تحدث الأرض بقيام الساعة إذا قال الإنسان: مالها؟ فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى، وأن أمر الأخرة قد أتى، فيكون ذلك جوابًا لهم عن سؤالهم».

وجاء في الكشاف: «وقيل ينطقها الله على الحقيقة، وتخبر بما عمل عليها من خير وشر» [٣].

ويشهد له ما جاء في الترمذي: عنه ﷺ أنه قرأ هذه الآية ثم قال: «أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: إن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمه بما

(١) "التفسير البياني": (٨٥/٢).
(٢) "التفسير الكبير": (٢٥٥/٣٢).
(٣) "التفسير البياني": (٨٦/٢) ، الحر المحيط / لأبي حيان ص :

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

عمل على ظهرها، تقول عمل كذا يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها»[١].

والرأي هو أن تحدث الأرض، على الإسناد المجازي، منه تقرير لفاعليه، فيها نستغنى بها عن فاعل، وتأكيدًا للظاهرة الأسلوبية المطردة في صرف النظر عمدًا عن الفاعل الأصلي لأحداث البعث والقيامة، ثم لا يغيب عنا هذا الصنيع البياني من قوة وإيحاء، فنحس بصورة فنية معبرة، فنقول في إعجاب: إنها تكاد تنطق، والبيان القرآني المعجز لا ينطق الجماد الأصم فحسب، بل يجرد منه كذلك شخصية حية فاعلة ناطقة، مريدة مدركة.

ونلحظ الفعل (تحدث) وما تبدو فيه من قمة الإعجاز القرآني إذ حذف منه مفعوله الأول لظهوره، أي تحدث الإنسان لأن الغرض من الكلام هو إخبارها لما فيه من التهويل.

وذكر المفعول الثاني والتقدير والله أعلم (تحدث الخلق أخبارها) فحذف الخلق لأن المقصود ذكر تحديثها الأخبار لا ذكر الخلق، والغرض من ذلك هو أخبارها لما فيه من التعظيم والتهويل، ولأنه (ما ألحق بظن لإفادة الخبر علمًا)[٢].

ولفظ التحديث يفيد الاستئناس وهناك لا استئناس فما وجه ذلك؟

السبب في ذلك أن الأرض كأنها تبث شكواها إلى أولياء الله وملائكته.

ولا يخفى علينا تلك الصورة البيانية الرائعة من خلال الاستعارة المكنية إذا أسند القرآن الكريم التحديث إلى الأرض وهو لا يكون إلا للإنسان، لأنه من صفاته وبذلك منح سبحانه الأرض القدرة على التكلم بأمر الله ﷻ، فقد استعار القرآن الكريم لفظة (تحدث) وحذف المشبه به مع وجود المشبه، وهو الضمير (ها) العائد على الإنسان فالاستعارة في هذا الموضع مكنية.

---

(١) حديث حسن صحيح غريب، "البحر المحيط": (١٠٥/٨)، وأنظر باب ذكر البعث في "سنن ابن ماجه": (٢)، ط الحلبي.
(٢) "التحرير والتنوير": (٤٩٢/٣٠).

وهناك رأي يرى إلى القول بأن التحديث مجاز مرسل لمطلق دلالة حالها[١].

والرأي بأنها استعارة إذ استعمل اللفظ في غيرها وضع له «وتعد الاستعارة من أعمق الفنون البيانية تعبيرًا وأرقها تأثيرًا، وأجملها تصويرًا، وأكملها تأدية للمعنى»[٢].

ولا يخفى علينا استخدام اللفظة المعبرة عن المعنى المراد في مكانها في القرآن الكريم بحيث لا يغنى عنها غيرها وهذا واضح في قوله: (أخبارها) إذ وضعت في موضعها المناسب، لأن هذه هي الأخبار العظيمة التي ستكون يوم القيامة، فكما سيكون هناك زلزلة سيكون هناك أحداث أعظم من الزلزلة، فالزلزلة تحدث كل يوم ونشاهدها أمامنا وفي القرآن الكريم كلما ذكر الزلزلة، قدم كما في قوله (إذا زلزلت الأرض زلزالها) أما في الأحداث الأخرى فيؤخر كما في قوله تعالى: ﴿إذا الشمس كورت وإذا البحار سجرت﴾ [التكوير:١-٢]، ﴿إذا السماء انفطرت ..﴾[الإنفطار:١]، ولم يقل إذ (الأرض زلزلت) لأن مشهد الزلزلة مشاهد موجود صحيح أنها أكبر يوم القيامة من كل زلزلة لكنها مشاهدة، أما في الأحداث الأخرى التي لم تحصل أمامنا، فلم نر أبدًا النجوم انتشرت ولا البحار سجرت ولا السماء انشقت ولا غيرها ولم نشاهدها إذن هناك أمور أعظم من الزلزلة يوم القيامة.

هذا وقد جمع قوله (أخبارها) باعتبار تعدد دلالتها على عدد القائلين مالها، وإنما هو خبر واحد وهو المبين بقوله: بأن ربك أوحى لها[٣].

وقوله: (بأن ربك أوحى لها)

يجوز أن يتعلق بفعل (تحدث) والباء للسببية، أي تحدث أخبارها بسبب أن الله أمرها أن تحدث أخبارها.

ويجوز أن يكون بدلاً من أخبارها وأظهرت الباء في البدل لتوكيد فعل تحدث

(١) "روح المعاني": (٤٦٨/١٥).
(٢) "البلاغة فنونها وأفنانها": (١٥٨).
(٣) "التحرير والتنوير": (٤٩٢/٣٠).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

إليه، وعلى كلا الوجهين قد أجملت أخبارها وبينها الحديث السابق[١].

(أوحى لها) الإيحاء عند الزمخشري مجاز كقوله تعالى (أن نقول له كن فيكون)، وقال الطبري في جامع البيان: «أوحى لها، أي ألهمها وعرفها بأن تحدث أخبارها».

وقال الشيخ محمد عبده: «الوحي هو الأمر الإلهي الخاص، قال لها: كوني خرابًا، كما قال لها عند إيجادها: كوني أرضًا، فهذا أمر من الأوامر التكوينية التي هي تعلق القدرة الإلهية بما هو أثر لها»[٢].

وهي أقوال متقاربة ومقبولة، وإن لم يكف تفسير الوحي بالأمر أو القول لتبين أثر اللفظ في المعنى، والراغب كان أقرب إلى حس العربية وهدي القرآن حين قال: «الوحي الإشارة السريعة مع الخفاء، فإن كان الموحى إليه حيًا فهو إلهام، وإن كان جمادًا فهو تسخير»[٣].

فالعربية قد استعملت الوحي بمعنى السرعة، فقالت: الوحي الوحي، أي البدار البدار، ومن أمثالهم: الموت بالسيف أوحى، أي أسرع وأحسم، ولحظ مع السرعة الخفاه، فقيل وحى إليه، أشار وكلمه سرًا، ومن الخفاء والسرعة الملحوظين في المادة، جاء الوحي بمعنى الإلهام بملحظ من خفاء مصدره وسرعة حدوثه.

فليس الوحي هنا بمعنى الأمر، لأن الأمر يقتضي توجيه الحديث ويعوزه ما للوحي من دلالة السرعة والخفاء، وإنما الوحي يكفي منه إيداع القوة فيها مما هو أنسب لجو التسخير والمطاوعة المسيطر على الموقف[٤].

وقد تعدى الفعل (أوحى) باللام وهو من الأفعال التي تعدى كثيرًا بحرف الجر بـ (إلى) ولم يتعد باللام إلا في هذا الموضع، لذا لفتت هذه التعدية انتباه العلماء وأخذ كل

(١) "التحرير والتنوير": (٤٩٣/٣٠).
(٢) "تفسير جزء عم سورة الزلزلة": محمد عبده.
(٣) "مفردات القرآن": مادة وحى.
(٤) "التفسير البيان": (٩٠/١).

منهم يدلي بدلوه في بيان ذلك:

- قيل إنه عدى باللام، لأن (أوحى) تضمن معنى(قال) كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١][(١)].

وقال أبو حيان: عدى أوحى باللام، وإن كان المشهور تعديتها بإلى لمراعاة الفواصل.

ومنهم من قال: «بأنه عدى باللام مع أن حقه أن يتعدى بـ (إلى) إيذانًا بالإسراع في الإيحاء»[(٢)].

أما ابن هشام النحوي فجاء بالآية شاهدًا على أن اللام تأتي موافقة لإلى كما تأتي موافقة لـ: (على، في، عند، بعد، عن، مع) بشواهد على هذا كله من فصيح العربية[(٣)].

ومنهم من يرى أن سبب هذه التعدية راجع إلى أن (لها) بمعنى (إليها) لأن العرب تضع (لام) الصفة موضع إلى، وقد استندوا في رأيهم هذا إلى قول العجاج أوحى لها القرار فاستقرت[(٤)].

ومنهم من يرى أن أوحى جاء متعديًا باللام لأنه يتعدى بها تارة وبـ (إلى) تارة أخرى[(٥)].

وقيل الموحى إليه محذوف أي أوحى إلى ملائكته المصرفين أن تفعل بالأرض تلك الأفعال فيها، وإذا كان الإيحاء إليها احتمل أن يكون وحي إلهام، واحتمل أن يكون برسول من الملائكة[(٦)].

---

(١) "التحرير والتنوير": (٤٩٣/٣٠).
(٢) "الكشاف": (٧٨٤/٤)، و"الجامع لأحكام القرآن": (١٤٩/١٩).
(٣) "مغني اللبيب": (١٦٣/١).
(٤) "ديوان العجاج": (٢١٨).
(٥) "البيان في إعراب القرآن": (٥٧٩).
(٦) "البحر المحيط": (٥٠١/٨).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الالكتروني ISSN 2636 - 316X

أخيرًا: عند النظر لجميع هذه الآراء، نلمح أن كلها مقبولة عدا الرأي القائل بمراعاة الفواصل، والرأي القائل بأن الموحى إليه محذوف....

أما الرد على الرأي القائل بمراعاة الفواصل وذلك «لأن القرآن الكريم لا يعني بالفاصلة على حساب المعنى، ولا على حساب مقتضى الحال والسياق»[١] كما أن القرآن الكريم لا يؤثر كلمة على أخرى لمجرد ملحظ لفظي لا يقتضيه المعنى.

أما القول بأن (الموحى إليه محذوف، أي أوحى إلى ملائكته) معناه أن الموقف يحتاج إلى وساطة لإيصال الإيحاء إلى الأرض وهو ما يأباه السياق الذي يقتضي- عكس ذلك.

فمع بناء زلزلت الأرض للمجهول وقع قوة الفاعلية المستفادة صراحة من إسناد الإخراج والتحدث والزلزلة إلى الأرض، لأوجه تقدير وساطة الملائكة، لإيصال الإيحاء إلى الأرض التي زلزلت زلزالها، وأخرجت أثقالها، وتُحدث أخبارها، فالبيان يقوم على قوة هذه الفاعلية في تصوير هول الموقف الذي يدهش له الإنسان فيقول في عجب وقلق: ما لها؟!

فاقتضى أن يأتيه الجواب (بأن ربك أوحى لها) تُحدث الأرض نفسها تلقائيًا، فالإيحاء هنا مباشرة ليلائم إسناد التحدث إلى الأرض، وسر قوته في هذه التلقائية المباشرة على وجه التسخير، ومن هنا كان إيثار التعدية باللام، لما في معنى اللام من اختصاص وإلصاق وصيرورة وتقوية الإيصال، وهي معان عرفها اللغويون أنفسهم، وعدوها فيما عدوا معانيها التي أحصاها ابن هشام في مغني اللبيب، وإن لم يلتفتوا إليها هنا في البيان القرآني، بل قالوا إن اللام تقوم مقام إلى بشاهد من أية الزلزلة: أوحى لها[٢].

ومن الملاحظ استخدام الفعل الماضي بدلاً من المضارع في هذه السورة الكريمة وهذا دليل على إعجاز القرآن الكريم، فكل قسم من أقسام الأفعال (ماضي - مضارع -

(١) "التعبير القرآني": (٢١١).
(٢) "التفسير البياني": (٩٢/١).

أمر) يدل على زمانه الذي وضع له ولأن دلالات هذه الأفعال على الأزمنة تختلف، فإن القرآن الكريم يستعمل أحدها دون غيره، لتحقيق الدلالة بزمنها الصحيح، وبشكل يتلاءم مع حاجة السياق فنجده يعدل عن الماضي ويعبر بالمضارع والعكس كما حدث في هذه الآية الكريمة ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها ... أوحى لها﴾

إذ استعمل القرآن الماضي بدلاً من المضارع فلم يقل (تزلزل - تخرج - يقول - يوحي) ربما كان السبب الباعث على هذا العدول راجعًا إلى أن مجئ الأفعال الماضية تقرير لأنها حادثة فعلاً لأن صيغة الماضي تدل على الفعل وكونه مقطوعًا به[1].

فالسبب في العدول هذا هو التأكيد على وقوع هذه الأمور بما لا يدع مجالاً للشك.

ولا تخفى تلك الموازنة القرآنية الرائعة في قوله تعالى: (يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها).

إذ وقعت تلك الموازنة بين تركيبين مختلفين اسم وفعل فالاسم (أخبارها) والفعل (أوحى لها) وقد أسهمت هذه الموازنة في خلق إيقاع يتناسب مع المعنى الذي عبرت عنه هاتان الآيتان، فكان لها دور بارز في خدمة السياق، فكانت الموازنة في هذه السورة خادمة للغرض القرآني ومعبرة عن غايته.

ولما أخبر سبحانه بإخراج الأثقال التي منها الأموات، اشتد التشويق إلى هيئة ذلك الإخراج، وما يتأثر عنه فقال مكررًا ذكر اليوم زيادة في التهويل (يومئذ يصدر الناس أشتاتًا ليروا أعمالهم).

(يومئذ) أي إذا كان ما تقدم وهو حين يقوم الناس من القبور (يصدر) أي يرجع رجوعًا هو في غاية السرعة والاهتداء إلى الموضع الذي ينادون منه، (الناس) من قبورهم إلى ربهم الذي كان لهم بالمرصاد لتفصل بينهم، (أشتاتًا) أي متفرقين بسبب مراتبهم في

(١) "التفسير البياني للقرآن": (٣٠/١٦٤٩-١٦٥٠).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

الذوات والأحوال من مؤمن وكافر، وآمن وخائف، ومطيع وعاص[١].

فقوله (يومئذ) كرة راجعة إلي ما قبل يصل بها القرآن مشاهد الموقف، ويرد السامع إلى ما سبق من آيات، ويستعيد ما استقر في خاطره من نذر[٢].

وقوله (يومئذ يصدر الناس أشتاتًا)

قوله (أشتاتًا) جمع شت أي متفرقين، قيل عن موقف الحساب فريق يأخذ جهة اليمين إلى الجنة، وفريق يأخذ جهة الشمال إلى النار، وقيل يرجعون عن الحساب بعد فراغهم من الحساب أشتاتًا[٣].

ولما ذكر سبحانه حالتهم هذه، أتبعه بعلته فقال (ليروا أعمالهم) بني الفعل للمفعول (ليروا) لأن المقصود رؤيتهم أعمالهم، لا تعيين من يريهم إياها، وقد أجمع القراء على ضم التحتية[٤] والبناء للمفعول هي الظاهرة المسيطرة على الموقف، تركز الانتباه كله في الموقف: يصدر الناس فيه أشتاتًا، مقودين إلى الحشر.

فالرؤية مستعملة في رؤية البصر والمرئي هو: إما صحائف الأعمال، أو جزاء الأعمال وهو الجنة أو النار[٥] وقيل المرئي هو: منازل الجزاء ويجوز أن تكون الرؤية مستعملة في العلم بجزاء الأعمال فإن الأعمال لا ترى ولكن يظهر لأهلها جزاؤها[٦].

وإنما أوقع اسم العمل على الجزاء لأنه الجزاء وفاق، فكأنه نفس العمل بل المجاز في ذلك أدخل من الحقيقة ، وبعدما بين سبحانه سبب صدور الناس ليروا أعمالهم سبب عن ذلك كله قوله مفصلاً الجملة التي قبله (فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره).

---

(١) "نظم الدرر": (٥٠٥).
(٢) "التفسير البياني": (٩٣).
(٣) "تفسير القرطبي": (١٤٩/٢٠).
(٤) "التحرير والتنوير": (٤٩٤/٣٠).
(٥) "التفسير الكبيرة": (٣٥٦/٣٢).
(٦) "التحرير والتنوير": (٤٩٤/٣٠).

وقد عبر النظم الكريم بقوله (ذرة) بالرغم من أنها شيء ضئيل جدًا يكاد يكون لا وزن له، إلا أن في ذلك دلالة قاطعة على عدله سبحانه فمن يعمل من السعداء مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل من الأشقياء مثقال ذرة شرًا يره، فالذرة في المعصية وإن قلت فيها استخفاف، والكريم لا يحتمله وفي الطاعة تعظيم، وإن قل فالكريم لا يضيعه، وكأن الله سبحانه يقول لا تحسب مثقال الذرة من الخير صغيرًا، فإنك مع لؤمك وضعفك لم تُضَيع مني الذرة، بل اعتبرتها ونظرت فيها، واستدللت بها على ذاتي وصفاتي واتخذتها مركبًا به وصلت إلى، فإذا لم تَضِيع ذرتي أفأضيع ذرتك.

ثم إن الغرض هو النية والقصد، فإذا كان العمل قليلاً لكن النية خالصة فقد حصل المطلوب، وإن كان العمل كثيرًا والنية دائرة فالمقصود فائت[1].

وكرر قوله (ومن يعمل) دون الاكتفاء بحرف العطف لتكون كل جملة مستقلة الدلالة على المراد، لتختص كل جملة بغرضها من الترغيب أو الترهيب فأهمية ذلك تقتضي التصريح والإطناب.

وهذه الآية الكريمة معدودة من جوامع الكلم وقد وصفها النبي ﷺ بالجامعة الفاذة.

ولما كان المقام مقام ترغيب وترهيب أوثر تقديم الترغيب على الترهيب في التقسيم تنويهًا بأهل الخير ثم ذكر أهل الشر مؤخرًا.

وقد عبر سبحانه من خلال تلك الآية الرائعة الخاتمة لسورة الزلزلة وعرضها في معرض بديع معرض المقابلة بين صورتين صورة الإنسان المطيع والإنسان الطاغي العاصي الذي ينسى منشأه، هنا يخيل السياق للسامع صورة معركة بين الفريقين، بين المطيع والعاصي، وهي معركة تخيلية تشعل الحس والخيال، ولكنها على هذا النحو معروفة المصير فلتترك لمصيرها المعروف وليمض صاحب الرسالة في رسالته، غير متأثر بطغيان

(١) "التفسير الكبير": (٢٥٧/٣٢).

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

الطاغي وتكذيبه، ولقد كان من المتوقع أن يعرف الإنسان بهذا الأمر، ويحسب حسابه ويعترف بفضل الله عليه وأن يشعر بتلك النقلة البعيدة، ولكن (فمن يعمل مثقال ذرة...)

فقد اجتمعت في تلك اللوحة التعبيرية الجمع والتقسيم والتفريق والمقابلة، فنجد الجمع في قوله (الناس) حيث جمع جميع الخلائق يوم القيامة في لفظة واحدة، ثم قسم الناس إلى فريقين، فريق خيّر وفريق شرير، ثم فرق بين هذين الفريقين حيث قال بأن من يعمل خيرًا يلقاه ولو كان ذرة، ومن يعمل شرًا يلقاه ولو كان ذرة .

كما أن فيها نوعاً من أنواع الإطناب وهو التفصيل بعد الإجمال فقوله (يصدر الناس أشتاتًا) هذا إجمال وبعده التفصيل في قوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرً ايره).

ولا يخفي ما للتفصيل بعد الإجمال من تأثير قوي على نفس السامع كما نجد الطباق بين قوله (خير - شر) والناظر لهذين اللفظين يجد أنهما ليسا مجرد حلية لفظية، وإنما هو ضرورة تعبيرية لا غنى عنها، إذ إننا في معرض صورة الخير وصورة الشر، وبيان جزاء وعاقبة صاحبهما فالمعنى قائم على أساس الثواب والعقاب، فمن يعمل خيرًا سيكون الخير ثوابًا على عمله، ومن يعمل شرًا فسيكون الشر عقابًا على عمله، فضلاً عما عمله اللفظان من الترغيب والترهيب البين.

وتكتمل الصورة بروعتها وجمالها من خلال الجناس التام المماثل، فقد نقل المولى سبحانه لنا صورة العدل الإلهي بين فريقين متناقضين في الأعمال، متفقين في الرؤية إليها (فمن يعمل مثقال ذرة خير يره)، (ومن يعمل مثقال ذرة شر يره) فهناك اتفاق تام بين الكلمتين في أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها وترتيبها.

وكأن التجانس الصوتي بين الألفاظ أوحى للمتلقي بتلك المساواة، فتصور إن تلك الأصوات وضعت مع أصحابها في ميزان متعادل كفتاه في درجة الرؤية والوضوح.

هذه هي نهاية المشهد، إنه الميزان الذي يحدد مصيرك إما أن تكون من أهل الخير أو من أهل الشر وكل موكول برحمة الله ومغفرته وقد تعاضدت الفاصلة منذ بداية السورة إلى نهايتها لإيصال هذا المعنى، ولبيان حاله ومعلم كوني واحد ومشهد متفرد للأرض من بين المشاهد التي ستحدث يوم القيامة، فالأرض تزلزل والأثقال تخرج والأخبار، ويتساءل الإنسان بتعجب شديد واستغراب عن سر هذا التغير العجيب للأرض، ولكن ما حدث للأرض وتساؤل الإنسان عن ذلك، يجيب عليه المولى ﷻ (ليروا أعمالهم) ثم تكون النتيجة من خلال صيغة التقابل التي ختمت بها السورة الكريمة.

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين الذي من عليَّ فجعلني في خدمة القرآن الكريم أتلمس المثوبة في رحابه والنعيم في جنابه، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين من كان قرآنًا يمشي على الأرض فكانت حياته ﷺ تطبيقًا واقعيًا لكل ما جاء في القرآن الكريم وكان كلامه وحيًا من عند اللهﷻفصل اللّٰهُمَّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين.

وبعد.....

فإن لهذا البحث مكانة خاصة في قلبي، فلا زلت أتذكر حينما كنت أقرأ في كتاب الله الكريم قوله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتًا....﴾، ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن ارضعيه ...﴾، ﴿وقال الإنسان مالها يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها ...﴾، وغيرها من الآيات.

التي أثارت في نفسي كثير من التساؤلات لمعرفة المقصود منها وبعد الدراسة والتحليل خلص هذا البحث لما يلي:

- مادة الوحي من الألفاظ التي أشرقت عليها القرآن الكريم بأبعاد جديدة، إضافة إلى ما جلاه من معانيها التي كانت متداولة عند الناطقين بها، فكان لهذه الإشراقة أن رفلت العربية بأبعاد روحية سمت بها إلى معان شريفة راقية في التعبير.

فقد استوعب القرآن الكريم جميع التصريفات اللغوية لمادة الوحي وعبر عن أغلبها بمعانيها المتداولة، وصبها جميعًا في قوالب جديدة ترابطت فيها المعاني المتعددة، أو انفصلت عن بعضها، فلم يستعمل القرآن الثلاثي المجرد (وَحَى) مطلقًا بل عبر بالفعل (أوحى) الثلاثي المزيد بحرف دائمًا سواء كان ماضيًا أو مضارعًا مبنيًا للمجهول أو للمعلوم، وذلك لما في الثلاثي من قوة في التعبير وبراعة في التصوير، لذا أثر القرآن التعبير به دون غيره.

كما عبر القرآن بالمصدر من الفعل الثلاثي (وحى) ولم يعبر عن المصدر من الرباعي (أوحى - إيحاء)، وذلك لأن المصدر من الثلاثي أخف على اللسان منه من الرباعي وفي هذا دلالة على دقة اختيار الألفاظ الدقيقة لتوضع في مكانها الدقيق.

- امتزجت آيات الوحي التسع بكافة الموضوعات الواردة في السورة التي وردت منها، فجاءت مناسبة لمطلعها ومقصدها وموضوعاتها وما قبله من آيات وكذلك ما بعده، ولأن القرآن الكريم في حكم الجملة الواحدة، فقد ظهر التناسب بين آيات الوحي وما سبقها وما تلاها، وكل ذلك يعد وجهًا آخر من وجوه إعجاز القرآن الكريم.
- تعددت المصادر للوحي، فقد أوحى سبحانه إلى عبادة ومخلوقاته بطرق مختلفة، وقد تبين أن جميع هذه الأنواع ماعدا الوحي الإلهي في حقيقتها وصلته بالوحي بمعناه الاصطلاحي لا تتعدى الأبعاد والأصول اللغوية كالخفاء، الإلهام ... وقد سميت بالوحي وذلك لتوفر هذه العناصر اللغوية.
- إن الوحي إلى الأنبياء والرسل ﷺ هو ما يسمى بالوحي بمعناه الحقيقي الجامع بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، أما الوحي إلى المخلوقات الأخرى فإن الوحي يقتصر على معناه اللغوي فقط، فالوحي إلى البشر يكون معناه الإلهام والقذف، وفي الوحي إلى الحيوانات كالنحل مثلاً يكون معناه الإلهام الغريزي، والوحي إلى مظاهر الطبيعة يكون بمعنى التسخير والامتثال لأمر الله بنظام معلوم.
- كثر في آيات الوحي الإيجاز بنوعيه (الحذف، القصر) وذلك للتأكيد على المعاني المراد جعلها مدار اهتمام المتلقي وتركيزه تاركًا في الوقت نفسه فسحة يتجاوب المتلقي من خلالها مع النص فتحدث المشاركة الوجدانية وفي ذلك تمام الفائدة.
- فعل الوحي مسندُ غالبًا إلى الله تعالى، وكان أكثر استخدام القرآن الكريم له بصيغة المبني للمجهول، كما أن الاستعمال الفعلي انصب على الجانب اللغوي بمعانيه المختلفة، بينما اقتصر الاستعمال الاسمى على الاصطلاح «الذي يتحقق به الاتصال

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

بين الله تعالى والنبي على صورة من الصور»[١].

- يعد القرآن الكريم أكثر الكتب السماوية حديثًا عن الوحي وطبيعته وبيان وسائله وأنواعه ومصدره ومتلقيه[٢].
- كثرت أساليب التوكيد في الوحي تبعًا لحاجة المعاني ومتطلبات المقام مثل: تقديم ما حقه التأخير، والتأكيد ب (إن ، اللام ، القسم....
- كان لحرف العطف (الفاء) حضور قوي في الربط بين أحداث الوحي إذ تكررت أكثر من مرة، فحكت سرعة الأحداث وتواليها.
- كان لاستخدام الصورة البيانية من تشبيه واستعارة قليلاً وما جاء منها كان أقرب إلى الحقيقة اعتمادًا على الحكاية الواقعية للأحداث.
- اشتمل الوحي على ألوان من البديع كالجناس والطباق والمقابلة وكلها قد استدعاها المقام وتطلبها المعنى.

وبعد .....

هكذا ينكشف للناظر في القرآن الكريم آفاق وراء آفاق، من التناسق والاتساق، فمن نظم فصيح إلى سرد عذب، إلى معنى مترابط إلى نسق متسلسل إلى لفظ معبر، إلى تعبير مصور إلى تصوير مشخص إلى تخييل مجسم إلى موسيقى منغمة إلى إتساق في الأجزاء، إلى تناسق في الإطار إلى توافق في الموسيقى إلى تفنن في الإخراج، وبهذا كله يتم الإبداع، ويتحقق الإعجاز. [سيد قطب]

د/ إيمان سعيد

---

(١) الدين والوحي والإسلام.

(٢) "القرآن في الإسلام": د/ محمد حسين الطباطائي، دار الزهراء للطباعة بيروت، ط١، ١٣٥٣/ ١٩٧٣م.

المصادر والمراجع

١) آل حم غافر - فصلت دراسة في أسرار البيان، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط أولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
٢) أسرار البلاغة، الشيخ عبد القاهر الجرجاني، ت. الشيخ/ محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط أولى، ١٩٩١م.
٣) أسرار ترتيب القرآن/ عبد الرحمن أبو بكر جلال الدين السيوطي، ت/ عبد القادر أحمد عطايا، ط٢، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م، دار الاعتصام.
٤) أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابهه القرآن / محمد بن حمزة الكرماني / دار الفضيلة .
٥) أسلوب الالتفات في البلاغة العربية القرآنية د/ حسن طبل / دار الفكر العربي .
٦) الإعجاز البلاغي في القصة القرآنية، د/عدنان مهدي الدليمي / كلية الآداب جامعة الموصل / العراق / دار غيداء للنشر والتوزيع / ط أولى ٢٠١٣/ ١٤٣٤ه .
٧) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، د/ محمد الأمين الخضري، ط ع الحسين الإسلامية أولى ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.
٨) الإعجاز العلمي في سورة النحل، أد/ حسني عبد الجواد شرف الدين، الدار المصرية للكتاب، بدون تاريخ.
٩) إعراب القرآن الكريم وبيانه / محي الدين الدرويش / اليمامة دار ابن كثير .
١٠) أسماء الله الحسنى دراسة في البنية والدلالة، د/أحمد مختار عمر، عالم الكتب ط أولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.
١١) الأسماء والصفات، الإمام البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٢) إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، أبو البقاء العكبري، دار الفكر بيروت، ط أولى ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
١٣) الإيضاح، الخطيب القزيني، ت د/ محمد خفاجي دار الجيل بيروت.
١٤) الإيمان لابن تيمية، ت/ محمد ناصر الدين الألباني، ط٥، المكتب الإسلامي، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
١٥) البحر المحيط أبو حيان الأندلس، ت الشيخ/ عادل عبد الموجود وآخرين، ودار الكتب العلمية، بيروت ط أولى ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

١٦) بدائع الفوائد ابن القيم، ت أ/ سيد عمران وأخرين، دار الحديث القاهرة، ط ١٤٢٣هـ، ١٩٩٤م.
١٧) البرهان في علوم القرآن، د/ محمد عناية الله سبحاني، دار الكتب، ط أولى ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
١٨) بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز / محمد بن يعقوب الفيروزبادي مجد الدين / تحقيق محمد على النجار ـ عبد العليم الطحاوي / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٦/ ١٩٩٦م .
١٩) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة / عبد المتعال الصعيدي الأستاذ الدكتور بكلية اللغة العربية / مكتبة الآداب .
٢٠) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثره في الدراسات البلاغية د/ محمد حسين أبوموسى / مكتبة وهبه .
٢١) بناء الصورة الفنية في البيان العربي/ كامل حسن البصير/ المجمع العلمي العراقي ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٢٢) البيان في إعراب القرآن عد الله بن الحسين أبي البقاء العكبري / ت على محمد البيجاوي / الناشر عيسى الحلبي ١٩٧٦م .
٢٣) البيان في علوم القرآن / محمد على الصابوني / دار إحسان للنشر والتوزيع ١٤٣٠هـ.
٢٤) التعبير القرآني والدلالة النفسية د/ عبد الله محمد الجيوسي / دار الغوثاني للدراسات القرآنية ط ١ / ١٤٢٦/ ٢٠٠٦م .
٢٥) التسهيل لعلوم التنزيل محمد ابن أحمد الكلبي أبو القاسم / ت/ محمد سالم هاشم / دار الكتب العلمية ١٤١٥/ ١٩٩٩م .
٢٦) التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب، دار الشروق، ط السادسة عشرة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
٢٧) التمهيد في علوم القرآن، محمد هلالي معرفة، مؤسسة النشر الإسلامي، ط٣، ١٤١٦هـ.
٢٨) تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب العزيز، أبو السعود العماري، ط الرابعة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
٢٩) تفسير البغوي (معالم التنزيل) حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة، سليمان مسلم، دار طيبة للنشر والتوزيع.
٣٠) التفسير البياني للقرآن الكريم، د/ بنت الشاطئ، دار المعارف بمصر ط ٧.
٣١) تفسير التحرير والتنوير، للإمام الشيخ/ محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع/ تونس.

٣٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي.
٣٣) تفسير القرآن العظيم/ بن كثير، ت أ/ هاني الحاج، المكتبة الوقفية بدون.
٣٤) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، ت أ/ محمد الباسل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.
٣٥) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) الرازي، دار الفكر العربي، بدون.
٣٦) تفسير الكاشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري، رتبه وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية/ بيروت.
٣٧) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، الإمام الأكبر د/ محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر، نهضة مصر للطباعة والنشر.
٣٨) جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري، دار المعرفة، بيروت، لبنان ط الرابعة ١٤٠٠هـ١٩٨٠م.
٣٩) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الريان للتراث، بدون
٤٠) جمهوة اللغة، دار صادر بيروت د.ت.
٤١) جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقد عند العرب، ماهر مهدي هلال / دار الرسي\د ١٩٨٠ م .
٤٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه/ محمد صافي دار الرشيد مؤسسة الإيمان .
٤٣) حاشية الشهاب المسماه عناية القاضي، وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، ضبطه وخرج أحاديثه الشيخ عبد الرازق المهدي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت.
٤٤) حروف المعاني، ت د/ علي توفيق، الحمد مؤسسة الرسالة ط٢، ١٤٩٦هـ.
٤٥) خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط الخامسة ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.
٤٦) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د/ عبد العظيم المطعني، ط اولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
٤٧)الدر ر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، ت د/ أحمد الحواط دار القلب، دمشق، بدون.
٤٨) دلائل الإعجاز في علم المعاني للإمام عبد القاهر الجرجاني، تقديم د/ ياسين الأيوي، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ٢٠٠٠م، المكتبة العصرية بيروت.
٤٩) دلالات التراكيب، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط الثانية ١٤٠٨هـ١٩٨٧م - ديوان العجاج.
٥٠)دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم خالد بني دومي / عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ط١.

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولىالالكتروني ISSN 2636 - 316X

٥١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، والسبع المثاني للألوس، دار الفكر، بيروت ط٣، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
٥٢) روائع الإعجاز في القصص القرآني دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز / المكتب الجامعي الحديث ١٩٣٢م .
٥٣) زاد الميسر في علم التفسير لابن الجوزي، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت.
٥٤)زهرة التفاسير، الشيخ محمد أبو زهرة دار الفكر العربي.
٥٥) الزمر - محمد علاقتهما بآل حم، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة.
٥٦) السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، أ/ عبد المتعال الجابري مكتبة وهبة بدون.
٥٧) شروح التلخيص المؤلف القزويني / ابن يعقوب المغربي / بهاء الدين السبكي / دارالكتب العلمية .
٥٨) صحيح البخاري، الإمام البخاري، ت د/ مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت ط الثالثة، بدون.
٥٩) الصوت اللغوي في القرآن، د/ محمد حسين الصغير، دار المؤرخ- بيروت/ لبنان ط١، ٢٠٠١م.
٦٠) الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، دار الفكر المعاصر، بيروت ط الرابعة ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
٦١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ/ أحمد بن يوسف بن عبد الدايم السمين الحلبي / ت/ محمد باسل عيون السود ١٤١٧/ ١٩٩٦م .
٦٢) فتح البيان في مقاصد القرآن للعلامة المحقق صديق حسن خان، دار الفكر العربي، القاهرة.
٦٣) علل التعبير القرآني في تفاسير سورة البقرة / تأليف جامعة بغداد .
٦٤) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للشوكاني، حققه وخرج أحاديثه د/ عبد الرحمن عميرة، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة.
٦٥) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية للعلامة الجمل، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
٦٦) في ظلال القرآن الكريم للشيخ سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
٦٧) القرآن وعلم النفس، محمد عثمان نجاتي.

٦٨)الكنز المرصود في قواعد التلمود، ط رابعة، دار العلوم/ بيروت/ لبنان، د.ت مجهول المؤلف.
٦٩) الكتاب، سيبويه ت أ/ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ط٣ ١٤٢٨هـ- ١٩٨٨م.
٧٠) لسان العرب لابن منظور، طبعة دار المعارف بمصر.
٧١) مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبري، دار الفكر العربي ط ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
٧٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي، تحقيق المجلس العلمي بمكناس ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.
٧٣) مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية، د، شارف مرازي.
٧٤) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم للعلامة الراغب الاصفهاني تحقيق نديم مرعشلي، دار الفكر بيروت.
٧٥) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه/ محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ-١٩٩٧م. دار الفكر بيروت.
٧٦) المعجزة الكبرى في القرآن الكريم / محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة المتوفى ١٣٩٤ / دار الفكر العربي ج ١.
٧٧) معجم المقاييس في اللغة لابن فارس، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت الطبعة الأولى ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.
٧٨) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى أبو حامد الغزالي، ت أ/ محمد عثمان الخشت، القاهرة ١٩٨٥م.
٧٩) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لجمال الدين ابن هشام الأنصاري / ت مازن المبارك ـ حمد على حمد الله ١٣٦٨/ ١٩٦٤م .
٨٠) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي، الناشر دار الغد العربي، القاهرة.
٨٤) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم (الفاء-ثم)، د/ محمد الأمين الحضري، مكتبة وهبة، ط أولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
٨١) من بلاغة النظم العربي د/ عبد العزيز عبد المعطي عرفة دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني / عالم الكتب / الجزء الأول .
٨٢) من بلاغة القرآن، ط/ أحمد بدوي، نهضة مصر- بدون.
٨٣) الموسوعة القرآنية خصائص السور جعفر شرف الدين / ت/ عبد العزيز عثمان التويجري / الناشر دار التقريب بين المذاهب الإسلامية / بيروت ط ١/ ١٤٢٠.

٨٤) المنهج الحركي للسيرة النبوية، منير محمد الغضبان، م المنار الأردن، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.
٨٥) مفتاح العلوم، ت/ نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٣م.
٨٦) منهج النقد الصوتي في تحليل الخطاب الشعري، د/ قاسم البرسيم، دار الكنوز الذهنية، ط ٢٠٠١م.
٨٧) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه: عبد الرازق غالب المهدي، دار الكتب العلمية بيروت.
٨٨) نهاية الأرب في فنون الأدب أحمد بن عبد الوهاب النويري شهاب الدين / ت/ مفيدة قميحة وآخرون / دار الكتب العلمية ط١/ ١٤٢٤/٢٠٠٤م .
٨٩) وجوه الإعجاز في آيات النحل لغويًا وعلميًا وطبيًا، د/ رضا فضيل بكر، الاستاذ بقسم علم الحشرات، كلية العلوم، عين شمس، دار الاعتصام.
٩٠) الوحي والقرآن الكريم، د/ محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة عابدين، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

الرسائل العلمية

١) الوحي ودلالاته في القرآن الكريم والفكر الإسلامي، د/ ستار جبر حمود الأعرجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط أولى ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
٢) التوجيهات الإلهية للفرد المسلم خلال القصص القرآني في سورة القصص، د/ مسلم اليوسف.
٣) الألفاظ النفسية في القرآن الكريم دراسة دلالية، د/ أيمن توفيق الوتاري، رسالة ماجستير/ كلية الأداب جامعة الموصل، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
٤) المثل في نهج البلاغة دراسة تحليلية فنية، رسالة ماجستير عبد الهادي عبد الرحمن الشاوي، كلية الآداب جامعة الكوفة ٢٠٠٧م.

المجلات:

١) جريدة الأهرام، مقالة د/زغلول النجار، العدد ١٢٧، ٢٠٠١/١٠/٢٠م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١.	ملخص	٦٨٣٩
٢.	Abstract	٦٨٤٠
٣.	مقدمة	٦٨٤١
٤.	تمهيد	٦٨٤٣
٥.	آية سورة الأنفال	٦٨٥٦
٦.	آية سورة المائدة	٦٨٧٠
٧.	آية سورة القصص	٦٨٧٩
٨.	آية سورة مريم	٦٨٩٨
٩.	آية سورة الأنعام (١)	٦٩٠٥
١٠.	آية سورة الأنعام (٢)	٦٩١٦
١١.	آية سورة النحل	٦٩٢٣
١٢.	آية سورة فصلت	٦٩٥١
١٣.	سورة الزلزلة	٦٩٦٢
١٤.	الخاتمة	٦٩٨٢
١٥.	المصادر والمراجع	٦٩٨٥
١٦.	فهرس الموضوعات	٦٩٩١

بحمد الله تعالى